

محمد يوسف عدس
مستشار سابق بمنظمة اليونسكو

مكتبة الإمام البخاري للنشر والتوزيع



محمد أسد
سيرة عقل يبحث عن الإيمان


بسم الله الرحمن الرحيم



محمد يوسف عدس
مستشار سابق بمنظمة اليونسكو

مكتبة الإمام البخاري



الطبعة الأولى
١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية
٢٠٠٩/٥٧٦٥م

ISBN
978- 977- 481- 013- 3

بطاقة فهرسة
فهرسة أثناء النشر - إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

عدس ، محمد يوسف .
محمد أسد : سيرة عقل يبحث عن الإسلام / محمد يوسف عدس . -
ط١ . - القاهرة : مكتبة الإمام البخاري للنشر والتوزيع ، ٢٠٠٩ .
١٤٤ ص ؛ ٢٠ سم
٣ ٠١٨ ٤٨١ ٩٧٧ ٩٨٧
١- الإسلام - تراجم
٢- العلماء المسلمون
٣- أسد ، محمد ، ١٩٠٠ - ١٩٩٢
أ- العنوان ٩٢٢,١

مكتبة الإمام البخاري للنشر والتوزيع
القاهرة : ٣ درب الأتراك - خلف الجامع الأزهر - ت ٢٥١٤٤٠٧٣
جوال ٠١٢/٢٦٧٦٧٩٧ - ٠١٠/٦١٨٦١١٤

إهداء

إلى الحبيبين الرَّاحلين ، ابني باسم وزوجتي .. كان رحيلكما مبكرًا ، ولكنكما كنتما حاضرين في القَلْب ، وأنا أُتابع خُطوات صاحب هذه السِّيرة ، وأقف معه على قبر زوجته في ثرَى مكة ، أُشَاطره مَشَاعر الحزن ، بينما تهفو روحي شوقًا إلى لقاءٍ يجمعني معكما في الجنة .. برحمةٍ من اللَّه وسَابغ فَضْله .

المحتويات

مُقَدِّمَة

يَنْدُر أن يُصادف المَرْء في قراءاته شخصية يؤمن صاحبها عن فهم ويعمل مخلصًا بمقتضى إيمانه ، شخصية يتطابق فيها عمق الإيمان مع قوة الإرادة واستقامة السلوك .

وأكثر من هذا ندرة أن تتوافر هذه الخصال مجتمعة في شخص ما لا تتوافر في بيئته ومجتمعه عوامل تدعم هذه الخصال ، ناهيك أن تكون عوامل معاكسة أو مثبطة ، وكان هذا هو شأن الصالحين المصلحين في مجتمعاتهم المعاندة دائمًا .

وأحسب أن « محمد أسد » كان من هذا النوع الفريد من البشر ، فقد نشأ في أسرة يهودية كانت تهيئه ليكون كاهنًا في معبد يهودي ، فدرس العهد القديم والعهد الجديد والتلمود ، وأتقن اللغة العبرية والآرامية ، وأتقن اليديشية لغة يهود أوربا الشرقية .

توسَّع في دراسته وتعمَّق في اللاهوت اليهودي والمسيحي ، ولكن جاءت النتيجة عكس ما توقع أهله ، إذ أتاحت له هذه الدراسة المتعمقة أن يكتشف في الكتب المقدسة عند اليهود وعند المسيحيين ما اصطدم بعقله وفطرته ، فقد تبين له أن بفكرة الألوهية في العهد القديم قصورًا لا يليق بها ، فالإله في العهد

القديم ليس هو الإله الخالق للكون كله ورب كل البشر ، إنما هو إله قبيلة بني إسرائيل ، لا يُعنى إلا باليهود ولايهتم إلا بهم ، فلطاعتهم يمنح رضاه وبركته ، وعلى عصيانهم يعاقبهم بيد أعدائهم حتى يرتدعوا ، ويثوبوا إلي رشدهم ، فإذا خاصم بنو إسرائيل شعبًا آخر فجروا في خصومتهم وتعاظم بطشهم ، وتحول إلههم إليهم يدافعهم لمزيد من البطش و الانتقام والقتل الذي لا يقف عند حد ولا عند أحد ، لا يُستثني من ذلك أطفال ولا نساء ولا شيوخ ، فالكل مشمولون بالانتقام ما داموا من شعب العدو .

توقَّف « محمد أسد » عند هذه الحقيقة طويلًا وبدأ عقله وقلبه يتمرد عليها ، لينتهي إلى نتيجة لا فرار منها وهي أن الله لا يمكن أن يكون بهذه الصورة البشعة التي تصوره بها أساطير بني إسرائيل .

كذلك لم يستطع عقله أن يستسيغ فكرة التثليث المسيحية ، ولا فكرة الأبوة والبنوة الإلهيتين ، ولا فكرة الخطيئة الأولى ، ولا فكرة أن الله سمح بصلب ابنه المزعوم ؛ ليخلص البشر من خطيئة أبيهم آدم .

وهكذا أحاطت الحيرة بعقل « محمد أسد » ، ولم يكن أمامه في بيئته الأوربية دين آخر لبحثه و مقارنته بالأفكار اليهودية والمسيحية ، ولم يكن ليفكر في هذا الوقت المبكر من شبابه في

الإسلام مطلقًا ، فكل ما كان متاحًا أمامه عن الإسلام في الثقافة الأوربية أنه دين متخلف لشعوب متخلفة ، وأنه حشد من خرافات .

هَجَرَ « محمد أسد » أسرته ، ووضع كل ما تعلم عن اليهودية والمسيحية خلف ظهره ، وذهب ليعمل بالصحافة ويجوب الأرض من أقصاها إلى أقصاها بحثًا عن حقيقة إيمانية يطمئن لها قلبه وعقله .

كانت رحلة طويلة فى المكان والزمان ، أعجب بحياة البدو في صحراء الجزيرة العربية فعاش معهم كواحد منهم سنوات ، وارتحل في بلاد العرب والمسلمين ، وتعلم العربية والفارسية والأردية ، والتقي كثيرًا من المسلمين في فلسطين و سوريا و العراق ومصر والهند وأفغانستان ، وصَادَق رجالًا بارزين في الحكم والسياسة والدين ، التقي بالشيخ مصطفى المراغي في أزهر مصر ، وبمحمد إقبال في الهند ، وتَسَلل إلي ليبيا ليلحق بالمجاهد الأكبر وقائد الثورة الإسلامية العظيم عمر المختار ، حَاور وتَحَدَّث مع هؤلاء جميعًا وغيرهم ، وامتزج بكيانه في الشأن الإسلامي وهموم المسلمين ومشكلاتهم .

أكسبته هذه الرحلات واللقاءات خبرات بالغة الثراء انعكست في كتاباته الصحفية وفي مؤلفاته ، ولكن الشيء الذي طبع كل

حياته وحركته هو بحثه عن الإيمان الحق ، لذلك كان عنوان هذا الكتاب « **سيرة عقل يبحث عن الإيمان** » .

وهي سيرة لا تجد فيها سردًا تاريخيًا لحياة صاحبها من مولده إلي وفاته ، ولكنها سيرة ترصد تحولاته العقلية في أدق مراحلها خطوة خطوة ، وهو يقترب شيئًا فشيئًا من غايته النهائية ، حيث بلغ في لحظة انقدحت في وعيه شرارة من ضوء كشفت له الكون ليرى موقعه الذي اختاره الله له ، فكان الإسلام هو غايته ، وإقالة الأمة من عثرتها وتخلفها هي الهدف الذي كرس « محمد أسد » نفسه لتحقيقه حتى آخر لحظة من عمره .

محمد يوسف عدس

القاهرة في ١٩ ربيع الأول ١٤٣٠هـ
١٦ مارس ٢٠٠٩م

مدخل إلى فكر
« محمَّد أَسَد »

كان مُغامِرًا جَسُورًا عاشقًا للسَّفَر والتِّرحال والاختلاط مع الناس على اختلاف أعراقهم ولغاتهم وأديانهم ، اشتغل بالصحافة فكان صحفيًّا متميزًا ناجحًا ، وعمل في الدبلوماسيَّة فكان دبلوماسيًّا فذًّا ، أَلَّفَ عددًا من الكتب فَتُرجِمَتْ باللغات الألمانيَّة والإنجليزية والفرنسيَّة والهولنديَّة والسويديَّة والأُرديَّة ، والعربيَّة .

وكان من أشهر كُتُبه وأكثرها رواجًا سيرته الذاتية التي وضعها تحت عنوان « الطريق إلى مكة » .

إنه مفكر إسلامي من طراز رفيع ، وداعية إسلامي بطريقته الخاصة ، وإلى جانب كُتُبه المشهورة نُشِرَ له عددٌ كبير من المقالات الهامَّة والجريئة في الشئون العربية والدولية ، وقد تَوَّجَ أعماله الفكرية بترجمة معاني القرآن الكريم بلغة إنجليزية رصينة تحت عنوان « رسالة القرآن » . إنَّه « محمد أسد » المُفَكِّر الذي هَجَر دينَه وثقافته واعتنق الإسلامَ والثقافةَ الإسلامية .

وإذا تأمَّلنا تطور الفكر الإسلامي في النصف الأول من القرن العشرين ، فلن نجد في أوربا مثل « محمَّد أَسَد » ، من حيث

إخلاصه في فَهْمِ الإسلام واستيعابه ، وفي محاولة إيقاظ المسلمين ، وفي بناء جسور بين الشرق الإسلامي والغرب المسيحي .

وليس هناك من المفكِّرين الأوربيين مَنْ يَفوقُه في ذلك باستثناء المفكِّر العظيم « علي عزت بيجوفيتش » ، الذي صَرَّحَ في بعض أحاديثه أنه استقى الكثير من معارفه عن مشكلات المسلمين وأوضاعهم في العالم الحديث من « محمَّد أَسَد » .

ولكن كل هذه الآثار الفكريَّة والمواهب الفذَّة والإخلاص لرسالة الإسلام ولنهضة المسلمين ، يبدو أنها لم تكن كافية لتدفع المسلمين إلى تقدير جهْدِ « محمَّد أَسَد » والتعرُّف عليه بالقدر الذي يستحقه .

شاء اللَّه أن يولد « محمَّد أَسَد » باسم « ليوبولد فايس » في مستهل القرن العشرين ، وعلى وجه التحديد في ٢ يوليو ١٩٠٠م من أبوين يهوديين في بولندا التي كانت آنذاك جزءًا من الإمبراطورية النمساوية ، واعتنقَ الإسلام سنة ١٩٢٦ م وأصبح اسمه « محمَّد أَسَد » . وبين مولده وإسلامه خاض حياة حافلة بالسفر والترحال والبحث الدائب عن موضع مستقر لا لقدميه ولكن لروحه وعقله .

لم يُطِق البقاء في منزل الأسرة فهرب منه وهو لا يزال في سن

الرابعة عشرة من عمره ، والتحق بالجيش النمساوي متطوعًا ليشارك في الحرب العالمية الأولى ، وكانت هذه أول مغامرة في سلسلة طويلة من المغامرات ، مغامرة لم يُكتب لها النجاح ؛ لأنه كان دون السن القانونية ، فاستعاده أبوه إلى بيت الأسرة .

في سنة ١٩٢٢ عُيِّن مراسلاً خارجيًّا لصحيفة « فرانكفورت تسايتونج » وكانت من أبرز الصحف الأوربية في ذلك الوقت ، واتخذ القدس مركزًا لعمله الجديد ثم انطلق منها إلى مصر وسوريا والعراق وإيران والأردن والجزيرة العربية وأفغانستان ، وقد مَنَحه هذا العمل رؤية جديدة في الشئون العالمية ، واستبصارًا عميقًا في قضية الصراع العربي الصهيوني في فلسطين .

كان اختياره للقدس مقرًّا لعمله راجعًا إلى دعوة خاله المقيم هناك ، وقد أتاحت له هذه الإقامة فرصة للقاء شخصيات مرموقة في لجنة العمل الصهيونية ، وقد هَالَه ذلك القدر الهائل من الازدراء الذي يُكِنُّه اليهودُ للعربِ .

وفي هـذا يقول « محمَّد أَسَد » في كتابه « الطريق إلى مكة » : **« رغم أنني من أصل يهودي إلا أنني أبديت معارضة شديدة للتوجهات الصهيونية ، فلم أستسغ أن يأتي مهاجرون أجانب مدعومون بقوى كبرى عالمية ، بِنِيَّةٍ مُعْلَنَةٍ هي تشكيل أغلبية يهودية في فلسطين ، ويتمّ انتزاع ملكية**

أصحاب الأرض الأصليين فيها ، ثم يُقتلعون من وَطَنِهم ليحلَّ فيه يهود مهاجرون » .

يُتَابع « محمَّد أَسَد » كلامه فيقول : « **لم يكن موقفي هذا مفهومًا على الإطلاق من جميع اليهود الذين التقيتهم خلال الشهور التي أقمت فيها بفلسطين ، ولم يستطع هؤلاء اليهود أن يفهموا ما رأيته بنفسي في العرب ، بل لم يكونوا يعيرون أي اهتمام لما يراه العرب أو يؤمنون به ! .. ولم يهتم واحد منهم بتعلّم لغة العرب ، وتَقَبَّلَ الجميعُ (بلا استثناء وبدون مساءلة) تلك العقيدة الأسطورية أن فلسطين هي الميراث الشرعي لليهود !** » .

وخلال ترحاله المتواصل في أرجاء العالم المسلم تزايد اهتمام « محمَّد أَسَد » بالإسلام دينًا وحضارة ، ولكنه لاَحَظَ وبنفس القدر من الاهتمام تدهور أوضاع المسلمين ، وأدرك عمق الفجوة بين تعاليم الإسلام ومبادئه وبين أحوال المسلمين المتردّية .

وفي هذا يقول : « **كانت القوى الأجنبية تسيطر على بلاد المسلمين ، وكانت الجزيرة العربية تخوض حروبًا قَبَلِيَّة لا معنى لها ، وقد غاص المسلمون جميعًا في أوحال التبرير الذاتي والجمود الفكري والتقليد الأعمى للغرب** » .

ولكن هذا لم يُثْنِ « محمَّد أَسَد » عن مواصلة رحلته في البحث عن الإيمان الحق حتى اعتنق الإسلام ، ولم يفقد يَقِينَه بقدرة المسلمين على تجديد أنفسهم والانطلاق مرة أخرى في طريق

التقدُّم الحضاري .

عَكَفَ « محمَّد أَسَد » على دراسة القرآن باعتباره المصدر الأول لهذا الدين ، وأدرك في وقت مبكر أن فَهْمَ هذا الكتاب فهمًا صحيحًا يتطلب إجادة اللغة العربية إجادة تامة ، وشعر بضرورة العيش مع المجتمعات العربية البدوية في وسط وشرق الجزيرة العربية حيث لا تزال اللغة فيها هي الأقوم والأقرب إلى لغة العرب زمَن نزول الوحي على النبي ﷺ ، وقد مَنَحه هذا قُدْرَة على فَهْم لغة القرآن فهمًا لم يُتَح لغيره ممن حاول ذلك وهو مقيم بعيدًا عن أرض العرب ولغة العرب في البادية .

وقد سَاعَدَتْه إجادة اللغة العربية على ترجمة معاني القرآن إلى اللغة الإنجليزية في كتاب سمَّاه « رسالة القرآن » الذي أودعه فيضًا من تفسيراته وتعليقاته الذكية ، توجّه بها إلى العقل الغربي بصفة خاصة ، وهو يعلم مقدار ما يحمله هذا العقل من أفكار مسبقة ومشوّهة عن القرآن ورسالته وعن نَبِيِّه ، ومن ثَمَّ كان حريصًا في تفسيره على استبعاد ما علق في بعض تفاسير القدماء من خرافات وإسرائيليات .

ومهما يكن الرأي في تقييم عمل « محمَّد أَسَد » في هذا التفسير ، وفي مدى نجاح مَسْعَاه وتوفيقه ، ورغم أن القارئ

المسلم **قد يختلف مع رأيه في بعض تأويلاته ومغالاته في إسباغ الرَّمزية على حقائق عالم الغيب ، إلا أنه سوف يدرك حقيقة إخلاص « محمَّد أَسَد » في عرض معاني القرآن وروح الشريعة الإسلامية في ضوء التقدمات التي جدّت في العصر الحديث .**

وقد شهد له بهذا الفضل مَنْ أسلم بعده من المفكرين الأوربيين أمثال « مراد هوفمان » وسجّل هذا في بعض كتبه المنشورة .

بذل « محمَّد أَسَد » جهدًا هائلاً في دراسته للقرآن ومحاولة فَهْمه ، وقد أَذْهَلَه قوة الخطاب القرآني وعُمْقُ توجّهاته الإنسانية ، حيث تتعاظم فيه روح العمل وتتلاشى السلبية والرهبانيّة ، وأدهشه ذلك الاتساق والتكامل بين الحاجات الروحية والمتطلبات الاجتماعية ، والمزج بين الروح والجسد ، بين العقل والإيمان ، وبين التقوى والاستمتاع بطيبات الحياة الدنيا .

ويُعلِّق على هذا قائلاً : « **لقد بدا لي واضحًا أن تدهور المسلمين لم يكن راجعًا إلى أي قصور في هذا الدين العظيم ولكنه راجع إلى إخفاق المسلمين في أن يحيوْا بمقتضى تعاليمه ومبادئه ، وفي التاريخ الحضاري لم يكن المسلمون هم الذين جعلوا الإسلام شيئًا عظيمًا ، وإنما الإسلام هو الذي جَعَلَهم عظماء** » .

ثم يتابع الكشف عن سِرِّ تخلُّف المسلمين فيقول : « **غير أن**

عقيدة المسلمين عندما تحولت إلى عادات وتقاليد وتوقفت عن أن تكون برنامج حياة يومي لهم يطبقونه بِوَعْي وجِدّية ؛ ضَعُفَ عندهم ذلك النبض المبدع الذي كان حافزًا ومؤسِّسًا لحضارتهم ، وحلَّ محلَّ هذا النبض بالتدريج الكسل والعقم والتدهور الفكري » .

كانت هذه الفكرة هي نقطة انطلاق « محمَّد أَسَد » في سعيه لإنهاض المسلمين ، وأصبحت هدفه الذي عاش من أجله بقية حياته . فقد ارتحل بعيدًا وعلى نطاق أوسع ، والتقى قادة المسلمين وملوكهم وتحدَّث إلى عامتهم ، وظلَّ يناقش ويكتب عن ضرورة الإصلاح والتغيير في الأنفس قبل الأشياء .

وبدأ يضع أفكارَه على الورق ، فكان كتابه الأول « الإسلام على مفترق الطرق » .. ورغم أنه نُشر مبكرًا سنة ١٩٣٤ إلا أنَّه ما يزال يدهش القارئ المعاصر بتحليلاته وآرائه حول أسباب تخلُّف المسلمين وتشخيص عِلَلِهم ، ودعوته المتواصلة إلى ضرورة أن يستعيد المسلمون ثقتهم بأنفسهم رغم وطأة الهجمة الشرسة للاستعمار الغربي ، وما سبق به من تقدُّم علمي وتكنولوجيا مبهرة .

سافر إلى الهند حيث التقى بالمفكِّر الإسلامي والشاعر العظيم « محمد إقبال » ، الذي يُعتبر الأب الروحي لدولة باكستان الإسلامية ، وقد استطاع هذا أن يقنع صديقه « محمَّد أَسَد » أن

يرجئ رغبته في السفر إلى تركستان الشرقية والصين وإندونيسيا ، ويبقى معه في الهند يعملان معًا في بلورة القواعد والأسس الفكرية للدولة الإسلامية التي أصبحت ولادتها وشيكة .

اعْتُقِلَ « محمّد أَسَد » في الهند في أواخر الحرب العالمية الثانية حيث اعتبرته السلطات البريطانية المحتلّة من أعدائها .

وعندما أنشئت دولة باكستان المسلمة سنة ١٩٤٧م اختير « محمّد أَسَد » ليكون رئيسًا لقسم شئون الشرق الأدنى بوزارة الخارجية ، بهدف توطيد علاقات الدولة الوليدة بجيرانها العرب والمسلمين .

وفي سنة ١٩٥٢ م ابتعثته باكستان إلى نيويورك ليكون وزيرها المفوّض لدى الأمم المتحدة ، حيث التقى هناك امرأة ذات مواهب فنية وحسّ جمالي رفيع وعلى ثقافة ورحابة عقل متميّزين ، توافقت مشاربهما واقتنعت بِفِكْرِه وتكريسه حياته لخدمة الإسلام والمسلمين ، فَقَبِلَت الزواج منه واعتنقت الإسلام .

وفي نيويورك أيضًا حَثَّه بعض أصدقائه أن يكتب عن تجربته الإسلامية الفريدة فكتب « الطريق إلى مكة » الذي نُشرت أول طبعة منه سنة ١٩٥٤ ، يتناول فيه النصف الأول من حياته ، راصدًا خطواته الروحية التي قادته بتؤدة وتمهّل إلى اعتناق الإسلام سنة ١٩٢٦م .

وبعد سنتين من الإقامة في نيويورك عاوده الحنين إلى السفر والارتحال ، فسافر وأسرته معه إلى المغرب والبرتغال وإسبانيا قبل أن يعود إلى باكستان سنة ١٩٥٥م .

في كتابه « مبادئ الدولة والحكومة في الإسلام » المنشور سنة ١٩٦١ م وَضَعَ « محمَّد أَسَد » بشكل واضح قواعد الدولة الإسلامية على أساس من مبادئ القرآن والسُّنَّة النَّبويَّة .

وفي هذا الكتاب يرى القارئ أن السيادة الحقيقية في الدولة الإسلامية إنما هي لله ، وأن هذا هو المبدأ الأساسي للدولة ، وأن المؤمنين ملتزمون بالشورى في إدارة شئونهم وكل ما يتعلق بالدولة والمجتمع . وأَكَّدَ « محمَّد أَسَد » أنه لا توجد خصومة بين الدولة الإسلامية والديمقراطية . ففي هذه الدولة من المرونة الكافية ما يجعلها قادرة على احتضان الديمقراطية البرلمانية وحُكْم القانون ، مشتملاً ذلك على المؤسسة الرئاسية والمحكمة العليا كما هو الشأن في النظام الديمقراطي الأمريكي .

أما ترجمته لمعاني القرآن في كتابه المُعَنْوَن « رسالة القرآن » الذي سَبَقَ الإشارة إليه فقد صَدَرَ سنة ١٩٨٠م . ويذكر « محمَّد أَسَد » أنه عندما شرع في هذه المهمة كان يظن أنه سينجزها في سنتين ، ولكنه أنفق من عمره سبعة عشر عامًا لإتمامها بالصورة

التي كان يطمح إليها ، وبالهدف الذي وَضَعَه لنفسه : أن يُقَدِّم القرآن والشريعة الإسلامية في الإطار الذي يخاطب العقل الغربي بثقافته العلمية ومنطقه ، ومن ثَمَّ كان حريصًا على تنقية تفسيره من الأساطير والإسرائيليات التي تورّط فيها بعض المفسرين الأقدمين ، ولعلَّ حِرْصَه هذا المفرط هو الذي نأى ببعض تأويلاته عن حدود المألوف والمُجمع عليه .

وفي إهدائه لهذا السفر الكبير يتوجه « محمَّد أَسَد » إلى المسلمين ؛ إذ يهديه إلى : « **أناس يؤمنون بأهمية الاجتهاد في فَهْم القرآن** » .

وهي حقيقة يرى أن القرآن نفسه يُؤَكِّدها . وفكرة الاجتهاد من الأفكار التي أَلَحَّتْ على عقل « محمَّد أَسَد » فتكررت في كتاباته الغزيرة في مواضع كثيرة . كان واثقًا أن العالم الإسلامي بدون اجتهاد يستحيل عليه أن يمارس الإسلام ممارسة صحيحة . وأن المسلمين بدون اجتهاد يتحولون إلى سجناء لفكر الآخرين الذين كانوا هم بدورهم سجناء الماضي وليس لديهم الكثير مما يمكن الاستعانة به في إحياء الإسلام ونهضته في العصر الحديث .

يَرَى « محمَّد أَسَد » أن المسلمين بالاجتهاد يمكن أن يُحَقِّقوا التغيير والنمو وَفْقَ متطلبات الزمن المعاصر الذي تطورت فيه الخبرة الإنسانية تطورًا هائلاً ، هذا الاجتهاد الذي يدعو إليه لا يتعارض مع

الاستمساك بالقرآن والإخلاص للسنة النبوية الصحيحة ، ولا يستدعي بالضرورة إنكار المدارس الفقهية التقليدية كما قد يتبادر إلى ذهن بعض الناس ، فالمهم عند « محمَّد أَسَد » أن يَفْهَمَ المسلمون دينَهُم مستخدمين أفضل ما وهبهم اللّه من قدرات عقلية .

وفي سنة ١٩٨٧ نشر « محمَّد أَسَد » كتابه « قانوننا ومقالات أخرى » اشتمل على مجموعة مقالات حول الفكر السياسي والديني للمسلمين كَتَبَها على مدار السنين ولكنها لم تُنْشَر ، منها مثلاً : « إجابات الإسلام » و « دعوة لكل مسلم » و « رؤية القدس » .

كانت زوجته « بولا حميدة » هي التي كشفت عن وجود هذه المقالات وهي تقلّب في أوراق زوجها القديمة ، وعندما قرأتها أدركت أهميتها وصمّمت على نشرها حيث قالت في تقديمها للكتاب : « **أعتقد أن القارئ سيدهشه كما دهشت ، ليس لسبق « محمَّد أَسَد » الفكري للزمن ، ولكن لموافقة أفكاره لمستجدّات العصر ، ولصدق تنبؤاته التي خَلَعَها على المستقبل** » .

أقول : إنَّ « محمَّد أَسَد » يُمَثِّلُ تركيبة فريدة بذكائه الخارق وفَهْمِهِ للإسلام ودفاعه عنه ، وبجهوده المتصلة وإخلاصه لفكرة البعث الإسلامي ، وبسيطرته على عدد من اللغات الأوربية الحيَّة منها الإنجليزية والألمانية والفرنسية ، وبعمق صلته بالمصادر

التوراتية القديمة في لغاتها الأصلية ، واستيعابه للتاريخ اليهودي وإجادته للغة اليديشية وأُلفته الكاملة بالأناجيل المسيحية ، ودراسته للفلسفة والحضارة الغربية ، كل ذلك مجتمعًا في شخص واحد ظاهرة فريدة بين جميع الغربيين الذين تَحَرَّوْا فَهْمَ الإسلام وعَرْضَ تراثه على العقل الغربي .

وهو بين هؤلاء جميعًا أكثرهم نجاحًا في تواصله وحواراته سواء مع المسلمين أو غير المسلمين وفي قدرته على عَرْض حقائق الإسلام في سياقها التاريخي العابر للأزمان .

ولست أشكُّ أنَّ مَن يقرا كُتُبَ « محمَّد أَسَد » ويتمعّن في أفكاره سيشعر كما شعرت أنَّ هذا المفكِّر الإسلامي العظيم (في سعيه وجهوده المخلصة) كان يريد أن يرى الإسلام حيًّا مزدهرًا في العالم الحديث .

ورغم أنه لم يكن يُخفي حُزْنَه على سوء أوضاع المسلمين وغياب نشاطهم في هذا العالم ، ظلَّ متفائلاً حتى النهاية ، مؤمنًا بأن جيلاً من المسلمين سيأتي في وقت مناسب لكي يحقق حلمه في الواقع ، كان شديد الإيمان بالشباب المسلم ومثاليته وقدراته وإصراره على التفكير المنطقي في شئون دينه وحياته الإسلامية .

كان « محمَّد أَسَد » يرفض التنطّع والتّطرُّف بكل صورهما دائم الدعوة إلى الوسطية الإسلامية ، وكثيرًا ما كان يردد في أحاديثه ومحاضراته تلك الآية القرآنية ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة : ١٤٣] .

وكان يُؤَكِّد دائمًا أن جوهر التغيير الذي يَسْعى إليه الإسلام يَكْمُن في التربية والتطور السلمي ، وليس في الثورة والعنف ، وأن باب الاجتهاد سيظلُّ مفتوحًا ، فلا أحد يستطيع إغلاقه ولا أحد لديه سلطة لإغلاقه مهما بلغت مكانته .

ظلَّ « محمَّد أَسَد » يناضل من أجل تثبيت هذه الأفكار في عقول المشتغلين بالهمّ الإسلامي وبالنهضة الإسلامية حتى حانت مَنِيَّتُه في فبراير ١٩٩٢ ، وقد بَلَغَ من العمر ثنتين وتسعين عامًا ، ودُفِنَ في مقابر المسلمين بمدينة غرناطة ، لعلّه أراد بذلك أن يمزج نفسه بثرى المدينة التي احتضنت آثار أعظم حضارة في التاريخ الإنساني كلّه ، حضارة الأندلس الإسلامية ، فقد كانت دائمًا مَهْوَى فؤاده وموضع حنينه .

أودُّ عند هذه النقطة أن أُقرِّرَ حقيقة ، فقد دَخَلَ الإسلام في مرحلة حاسمة من مراحل تطوره في الوسط الأوربي والغربي بصفة

عامة ، وأرى أن تراث « محمَّد أَسَد » وفِكْره يعبّرانِ أصدق تعبير عن ضمير المفكرين الذين يحملون عِبْء الهمّ الإسلامي في الغرب ، وهو أمر يحتاج مِنَّا إلى إعادة النظر من جديد ، واسْتلهام الدرس والحكمة من هذا المفكر الإسلاميّ العظيم .

⊠ ⊠ ⊠ ⊠

ملامح من أسلوبه الأدبي

كان « محمَّد أَسَد » أديبًا بالفطرة لا بالتعليم ولا بالمهنة ، فهو لم يتعلم حرفة الأدباء ولا مارس صناعتهم ، ولكنك تلاحظ موهبته الأدبية في عباراته الشاعرية المشرقة ، وفي دقته في اختيار الكلمات الموحية بفيض مشاعره وحساسية ملاحظاته ، فقد يلمح حدثًا صغيرًا لا يلفت نظر أحد فإذا به يتطور في مخيلته إلى دراما ذات أبعاد إنسانية ، وقد تمر به خاطرة عابرة أو منظر طبيعي مألوف فإذا به يفجّر جداول من خواطر وذكريات في شريط حياته كلها، ابتداءً من طفولته الباكرة حتى لحظته الراهنة ، أحداث وخواطر تنهمر كالسيل على ذاكرته، ثم تنساب عذبة رقراقة فى حوار جُوّانيّ (هو ما يمكن أن نسمّيه بالحديث النفسيّ عند « محمَّد أَسَد ») .

يغرق فيه وكأنه قد غاب عن الوعي بالموقف الراهن . وهو إنما يغوص فى وعيه الجوّانيّ الخاص حيث تتداعى وقائع الماضى لتلحق بأحداث الحاضر . وتمتزج فيه الصور والأصوات والأفكار . تتلاقح وتتوالد ثم تنبثق فى إبداع جديد لا تخطئه عين الخبير .

يتجلّى هذا كله واضحًا في كتابه « الطريق إلي مكة » فى أصله الإنجليزيّ وعلى الأخص في ذلك الفصل الذي يحمل عنوانه « الظمأ » . علمًا بأن اللغة الإنجليزية ليست هي لغته الأم . هذه

حقيقة توقّفت عندها كثيرًا فى إعجاب وانبهار خلال قراءتي للكتاب .

يصف « محمّد أَسَد » فى هذا الفصل رحلته التي ضل فيها الطريق عبر صحراء « النفود » ، فقد أنجز مهمة استكشافية لصديقه الملك « عبد العزيز بن سعود » في أرض الكويت ، وكانت واقعة تحت الاحتلال البريطاني (الذي ألّب عليه القبائل المتمردة وأمدّهم بالسلاح والمال) .

وكان على « محمّد أَسَد » أن يعود إلى الرياض ، وما كان بحاجة حينذاك أن يسلك طريقه عبر صحراء « النفود » ، ولكنه وجد متسعًا من الوقت ليحقق حلمًا طالما راوده خلال إقامته بالجزيرة العربية : أن يزور آبار « تيماء » التي ورد ذكرها في « العهد القديم » روايةً على لسان أحد أنبياء بني إسرائيل.

أراد رفيقه ودليله الصحراوي العتيد « زيد » أن ينبهه إلى خطورة هذه الرحلة ، فقليل جدًّا من الناس من يجرؤ على المخاطرة بحياته في صحراء « النفود » لمجرد أن يبحث عن آبار « تيماء » ويراها ، ولكن هيهات أن يُثني هذا المغامر الرومانسي عن تحقيق رغبة ألحّت عليه ، وقد اكتسبت في وجدانه هالة من القداسة وعبق التاريخ .

ثم تبدأ المأساة عندما فَقَد أحد جَمَليه الذي هجرهما في غفلة

منهما وهما نائمين ، ولأن « زيدًا » كان قد أُصيب في قدمه إصابة منعته من الحركة كان على « محمَّد أَسَد » أن يخرج بنفسه للبحث عن الجمل التائه ، فذهب يتعقب آثاره الظاهرة على صفحة الرمال الممتدة إلى مالانهاية ، ولسوء حظه هبت عاصفة رملية فتلاشت آثار أقدام الجمل ، غطّتها الرمال تمامًا وضاعت معالم الطريق فلم يعد قادرًا على مواصلة البحث ولا العودة من حيث أتى .

وهكذا ضلّ طريقه وظل يدور على غير هدى في هذا التيه الصحراوي ثلاثة أيام تحت الشمس المحرقة ولهيب رياح السموم وصفعات الرمال الحارة على وجهه ، وقد نفد ما كان لديه من ماء لشرابه وشراب دابته .

تلك بعض خصائص الصحراء العربية التي أبدع « محمَّد أَسَد » في وصفها ورصد سلوكها المتقلب : الرائع أحيانًا ، والفاجع المروّع أحيانًا أخرى .

وصف حالة الظمأ المتناهي وصفًا مفصلًا دقيقًا من واقع معاناته وخبرته الخاصة ، فرأينا كيف يبدأ الإعياء ويتطور لحظة بلحظة ، وكيف تتسرب الطاقة ويُستنزف الوعي معها حتى يشرف الإنسان على الإغماء وينهار إلى طريق الموت والهلاك .

لقد عَانَى « محمَّد أَسَد » كل هذا ووصف حالة ظمأ حقيقية

وتابع آثارها على جسمه وعقله ووجدانه وصفاً لم أقرأ مثله في أي أثر أدبي سابق ، ولم تتطاول إليه حتى سيناريوهات العطش السينمائية كما شاهدناها في فيلم « سجين زندا » الذي كان مشهورًا في أربعينات القرن الماضي .

أصبح « محمَّد أَسَد » على يقين أنه قد ضل طريقه في صحراء هائلة لا ترحم ، ربما إلى الأبد ، يقول : « **التصق لساني بسقف حلقي وأصبحت أحسّ به وكأنه قطعة من الخشب أو الجلد الجاف المتشقّق المؤلم ، الحلق كله جفاف يحترق والعينان ملتهبتان ، وقد مضى على ذلك يوم وأنا سائر على غير هدي ، ولا أثر هناك ولا مَعْلم يدل على أي اتجاه ، وإنما بحر من الرمال حولي من كل ناحية . العطش يتفاقم فيزيد من الاضطراب في تفكيري ، وأشعر بحالتي الصحية تتردى أكثر فأكثر ، ضاقت دائرة الكون من حولي فلم يعد هناك أمامي سوى كثبان من الرمل تترى أمام عينيَّ واحدًا بعد الآخر ، وشعور خانق بحرارة لا نهائية ... يا إلهي أدعوك ألا تتركني أموت غريبًا هنا ... !** » .

يصف « محمَّد أَسَد » شعوره بالزمن وهو في هذه الحالة ، حيث تقلّص الزمن إلى حاضر مطلق شديد الوطأة ، بلا ماضٍ ولا مستقبل .. يقول : «**كنت أدور وأنا لا أدري حول موقع زيد في دوائر لمدة يومين دون أن أهتدي إليه ، فبكيت ولكن بلا دموع ، فقد جفت الدموع في مقلتي ، أصبحت الدموع هي الأخرى جزءًا من الماضي الذي**

تلاشى ، وحتى الحاضر انحصر نطاقه في حالة من الظمأ والحرارة والعذاب .. ! لقد نفد الماء كله منذ ثلاثة أيام ، فكم ياربي من الأيام القادمة عليّ أن أقضيها ظمآنًا بلا ماء !؟.. وهل يمكن أن أستمر حيًا ، أم أنه مقدّر عليّ أن أُصاب بالجنون قبل أن يحلّ بي الموت ؟! الآلام في أعضاء جسمي كله تتزايد لحظة بعد أخرى ، وتتداخل لحظات الألم البدني مع لحظات الروع الذي يغتال عقلي ، وتتدافع في كيان يتمزق وينهار ، ما أحوج هذا الكيان المتداعي إلى الاستلقاء على الأرض التماسًا للراحة ! ولكنني أعلم أنني لو ركنت إلى الراحة في أي مكان فلن أنهض بعد ذلك مرة أخرى ؛ لأن الرياح تحمل أطنانًا من الرمال تدفن بها كل شيء ساكنٍ لا يتحرك، لذلك تحاملت على نفسي بمشقة بالغة وألقيت بجسدي على الجمل وأخذت أستحثّه على النهوض بكل ما تبقى من قوة في كياني ، فلما اهتز الجمل ناهضًا كدت أسقط من فوق ظهره لولا أن تشبثت فيه بأظافري ، ثم غبت تمامًا عن الوعي لفترة من الزمن لا يعلم مقدارها إلا اللّه وحده ، ولم أدر ما حدث بعد ذلك » .

عندما أفاق « محمَّد أَسَد » علم أن قافلة أنقذته في اللحظة الأخيرة وهو مشرف على الموت فسقته من مائها ، لمح معهم وجه رفيق رحلته « زيد » فاطمأن إلى أنه قد نجا أخيراً من موت محقق .

ينام « محمَّد أَسَد » تحت ظلمة الصحراء الممتدة إلى مالانهاية ، ويحلم برحلات سابقة في إيران ضل طريقه في مستنقعاتها حتى أنقذته مجموعة من الإيرانيين ، ثم يعود بخواطره إلى الصحراء العربية

ليلخص شعوره بالنجاة .. يقول : « **خطر لي وأنا أرقد تحت النجوم العربية المؤنسة أنني أنا .. هذه الحزمة من اللحم والعظم ومجموعة من الأحاسيس والأفكار ، وقد ألقت بي المقادير في فلك هذا الكون الدوار مجرد ذرة من ذراته اللانهائية . لقد تعرضت لخطر الموت ، فهل هناك أي معنى للخطر ؟ أم أنه مجرد وهم ! وأن كل ما حدث لي ليس إلا جزءاً من حركة هائلة لهذا الفلك الدائر ، أو لحظة عابرة في تياره الدافق . ومع ذلك لا زلت أشعر في هذا الخضم الكوني بوجود مستقل لكياني ، تتقلّب عليه مشاعر متناقضة من الخوف والأمن .. الوجود والعدم .. القنوط والأمل .. الحزن والبهجة .. وليست هذه المشاعر المتباينة إلا تجليات مختلفة لهذا الكيان الملكي الصغير الذي هو أنا ؟! فأي حرية هذه التي لا حدود لها يا إلهي وهبتها للإنسان ..!!** »

يقول « محمَّد أَسَد » : « **عند هذه النقطة من الخواطر المتدفّقة المتدافعه شعرت برغبة في إغلاق عينيّ ، فقد كانت آلام الغبطة حادة وغامرة ، بحيث أسلمتني لأجنحة من السعادة شعرت بها تهدهدني ، ومع نفحات ناعمة من هواء الليل تداعب وجهي استسلمت لفيض من مشاعر الأمن واستغرقني صمت عميق ...** » .

إنَّ وصف « محمَّد أَسَد » لرحلاته الصحراوية وحياته البدوية البسيطة الدافئة وصف آسر يخلب الألباب ويعيد الإنسان إلى فطرته الأولى التي فطر اللّه الناس عليها .

وَصْفٌ يغسل كل ما علق بالنفس من آثار الحياة المدنية

المعقدة الزائفة، التي طمرت نقاء الفطرة بركام القيود والمحاذير والعادات التافهة . الحياة في الصحراء كما نراها في أدب « محمَّد أَسَد » تمنح العقل والروح فرصة الانطلاق إلى آفاق من الحرية لا حدود لها ، وتضع الإنسان مباشرة أمام ذاته ، فيستغرق في مشاعره وذكرياته ، ويتحول رفيقه ودليله « زيد » ابن الصحراء العربية عنصرًا منسجمًا في هذه المنظومة ، فهو يشاركه فيما تَعَرَّضَا له من أحداثٍ ومغامرات خلال ترحالهما معًا عبر الصحاري والقفار والجبال والبحار ، ويتوحّد معه في كثير من الذكريات .

يقول زيد لصاحبه : **« ألا تتذكر يا عمي تلك الأيام التي نزلنا فيها ضيوفًا على الملك (يقصد عبد العزيز بن سعود) وقد أبديتَ حزنك عندما رأيت مراقد الهُجن الملكية وقد امتلأت ساحتها بسيارات جديدة براقة ، حيث اختفت الهُجن وحل مكانها صفوف من السيارات .. ؟ وهل تتذكر كيف احتفى بك الملك وقرّبك في مجلسه ؟**

ويرد عليه « محمَّد أَسَد » في تناغم وتواصل : « ألا تتذكر يا زيد عندما أرسلنا الملك لنكشف له أسرار تمرّد البدو ضده ، وكيف كنا نسير في الليل ونختبئ طول النهار حتى لا يرانا أحد ، وكيف تسللنا إلى الكويت وعرفنا الحقيقة ؟ وتأكدنا من مصدر الريالات الجديدة اللامعة والبنادق الحديثة التي كانت تأتي عبر البحر في السفن الإنجليزية ؟ » .

ويُتابع زيد ذكرياته المثيرة مع صاحبه فيقول : **« ألا تتذكر كيف عبرنا البحر سرًّا في قارب صغير إلى مصر ، وكيف ارتحلنا في الصحراء طويلًا نحو الغرب حتى وصلنا إلى الجبل الأخضر في ليبيا متحاشين القوات الإيطالية وجواسيسهم لعنهم اللّه ؟! .. وكيف التقينا بالمجاهدين وقائدهم العظيم عمر المختار ؟ لقد كانت أيامًا مثيرة ! »** .

وهكذا استغرق الرفيقان معًا في ذكريات لا حصر لها ، حيث عملا متلازمين مشتركين في هدف واحد ومشاعر واحدة .

كانا يستدفئان بالنار أمامهما في ليلة صحراوية باردة فظلا على هذا النحو زمنًا ، حتى خبت النيران إلا من جمرات قليلة تتلمّظ تحت التراب . تثاقلت الجفون ، وبدأ النعاس يتسلل إلى العيون ، ولكن يستمر الحديث النفسي كأنه حلم متصل يتدثر تحت عباءة الليل ، وقد أطبق على الكون هذا الصمت الصحراوي الذي لا تخترقه سوى النجوم في السماء ، وهبّات الهواء الحانية تصافح الوجوه . تتداخل صور الماضي والحاضر ثم تنفصل لتتمايز ، وتستدعي صورًا أخرى لأحداث وأصوات عجيبة طواها النسيان في أعماق الماضي .

يقول « محمَّد أَسَد » : **« تراءت لي سنواتي الأولى في الجزيرة العربية .. وحِجتي الأولى مع زوجتي إليسا إلى البيت الحرام .. ثم وفاة زوجتي المفاجئ .. تلك المرأة النبيلة الآسرة التي أحببتها حبًّا لم أحبه**

لامرأة أخرى في كل حياتي ما مضى منها وما أقبل . إنها ترقد الآن تحت ثرى مكة .. وعلى قبرها شاهد . هو مجرد صخرة صغيرة بسيطة بلا اسم .. هناك انتهت حياة عزيزة على النفس وبدأت حياة جديدة من المعاناة والكدح : حياة وموت .. نهاية وبداية .. نداء وصدى .. وأشياء أخرى كثيرة تتداعى وتتداخل في هذا الوادي الصخري بمكة المكرمة ... » .

يأتي زيد بالقهوة الصحراوية التي حان وقتها فيقطع حبل الذكريات ، وهكذا ينتقل « محمَّد أَسَد » من الحلم إلى الواقع مرة أخرى فيرفع نظره ليرى عينيْ زيد ، ثم يغوص ثانية في حديثه النفسي : هاتان العينان الغائرتان في مِحجريْهما تحت أهداب سوداء طويلة .. عينان بسيطتان حزينتان في هجوعهما ، ولكن سرعان ما تتألق في بهجة لامعة .. إنهما يتحدثان عن مئات الأجيال من الحياة الصحراوية الحرة .. عينا رجل لم يستغل أجداده أحدًا من البشر ، ولا هُم سَقَطُوا فريسة استغلال من أحد ، لله درّك يا زيد .. !! أجمل ما فيك هذه الحركة الهادئة الواعية دائمًا بإيقاعها ، حركة لا تتسم بالعجلة ولا بالتردد ، وإنما محكومة بدقّة واقتصاد ، في اتساق وتناغم يشبه تداخل الآلات الموسيقية في أوركسترا سيمفوني بالغ التنظيم ! .

يقول « محمَّد أَسَد » : « **كثيرًا ما نلحظ هذا النمط من الحركة عند البدو ، فحياة البدو في الجزيرة العربية لم تتشكل بقوالب من صنع**

إنسان ، إنما هي صناعة الطبيعة بصرامتها ودقتها . جعلت الإنسان يتجنب كل ميوعة في السلوك ، إنها تختزل كل التأثيرات التي تفرضها إرادته أو تمليها الضرورات الخارجية في أضيق الحدود ، ومن ثم أصبحت حركاته بالغة التحديد ، وهذا ما ترسب فيها عبر أجيال لا حصر لها . ومع مضيّ الزمن اكتسبت خصائص الماس في حدتها ونعومتها معًا ، وقد تولد من هذا كلّه تلك البساطة السلوكية التي تظهر في إيماءات العربي الأصيل كما تظهر في موقفه من الحياة بصفة عامة » .

توقّف حديث الذّات وبلغ شريط الذكريات منتهاه ، حيث استقرت في عقل « محمَّد أَسَد » وقلبه حقيقة جديدة في سلسلة الحقائق التي يسعى واعيًا أو غير واعٍ للكشف عنها واستيعابها . إنها نقلة جديدة في رحلته الروحية ، وهذا ما نلاحظه بعد كل حالة من التأملات العميقة إثر حوار أو حادثة بعينها .

وهكذا اتّخذ « محمَّد أَسَد » قرارًا لم يكن متوقعًا منه فإذا به يَعْدِل بنفس الحماس والقوة عن هدفه الأول « تيماء » إلى هدف آخر ، فيسأل صاحبه زيد : **« قل لي يا زيد ، إلى أين نحن متجهون غدًا ؟ »**

فيجيب زيد : **« إننا ذاهبون – طبعًا – إلى تيماء يا عمي .. » .**

فيقول له « محمَّد أَسَد » : **« لا يا أخي العزيز ، لقد كنت من قبل أرغب في الذهاب إلى تيماء ، أما الآن فلم أعد أرغب في ذلك . إننا ذاهبون غدًا إن شاء الله إلى مكة ! »** .

قصة كتاب

الكتاب : هو « الطريق إلى مكة » .

والمؤلِّف : هو « محمَّد أَسَد » .

أما الموضوع فهو سيرة الرجل الذاتية ، أو بالأحرى سيرته في النصف الأول من حياته وخصوصًا المرحلة التي سبقت اعتناقه للإسلام .

والحقيقة أن « محمَّد أَسَد » كان عازفًا عن الكتابة عن حياته لأسباب أوضحها في مقدمة الكتاب ، كما أوضح أيضًا الأسباب التي جعلته يعدل عن رأيه ، والتي حفزته على أن يَكْتُبَ عن رحلة تحوّله إلى الإسلام .

يقول : « **أنا لم أُفَكِّر مِن قَبْل في الكتابة عن قصة حياتي ، فما خطر ببالي أن حياتي يمكن أن تكون موضع اهتمام أحد غيري ، إلا أنني بعد غياب عشرين سنة عن الغرب ذهبت إلى نيويورك مارًّا بباريس في بداية عام ١٩٥٢م ، وهناك اضطررت إلى تغيير وجهة نظري ، فقد كنت مبعوثًا من الحكومة الباكستانية في الأمم المتحدة ، ولاحظت أن عملي ونشاطي قد أصبحا محطَّ أنظار واستغراب من جانب الأصدقاء والمعارف الأوروبيين والأمريكيين على السواء . نظروا إليّ في أول الأمر على أنني خبير أوروبي مُكَلَّف بمهمة مُعَيَّنة من قِبَلِ حكومة شرقية ، وأنني**

قد تَأَقْلَمْت بيئة الدولة التي أخدمها ، ولكن عندما تَبَيَّن لهم أنَّ تصريحاتي ونشاطي في الأمم المتحدة تتسم بحماس رجل مُؤْمِن بقضايا المسلمين السياسية والثقافية بَدَتْ عليهم الحيرة ، وبدأ بعضهم يسألني عن خبراتي السابقة فعلموا أنني بدأت حياتي الوظيفية مراسلاً خارجيًّا لصحيفة أوربية وأنني بعد سنوات من السفر والترحال في بلاد الشرق الأوسط أصبحت مسلمًا ، وأنني عشت ست سنوات بعد إسلامي ، في شبه الجزيرة العربية متمتعًا بصداقة الملك ابن سعود ، وأنني - بعد ذلك - رحلت إلى الهند فالتقيت الفيلسوف والشاعر المسلم محمد إقبال ، وأنه هو الذي أقنعني بالبقاء معه لأساهم في بناء المؤسسات الثقافية الإسلامية التي كانت في ذلك الوقت لا تزال حلمًا في خياله ، كان الأمر بالنسبة لي ، كما هو بالنسبة لإقبال ، أن الدولة الإسلامية المنشودة هي الطريق الوحيد ليقظة الحلم الإسلامي الكامن ، كيان سياسي تجمعه أيديولوجية واحدة وليس مجرد انتماء عرقي أو قومي . وقد كرّست من حياتي لهذه الغاية عدة سنوات دارسًا وكاتبًا ومحاضرًا ، ومع الوقت أصبحت معروفًا بأنني الشارح المفسّر للقانون الإسلامي والثقافة الإسلامية ، فلما أُنْشِئَتْ دولة باكستان سنة ١٩٤٧ تَوَلَّيْتُ فيها بعض المناصب ، تُوِّجَتْ بابتعاثي وزيرًا مفوّضًا لدى الأمم المتحدة . عند هذه النقطة بَدَا لأصدقائي أن المسألة أكثر من مجرد أنَّ أوربيًّا استطاع أن يستوعب مجتمعًا مسلمًا حدث أنه وجد بين ظهرانيه ، وإنما هو تحوّل كُلّي من ولاء ثقافي لولاء ثقافي مختلف عنه بل مناقض له ، وهذا بالذات هو الذي بدا شديد الغرابة في نَظَرِ أصدقائي الغربيين . إنهم لم يستطيعوا أن يتصوروا رجلاً

غربي المولد والنشأة والتعليم يمكنه أن يتوحَّد مع العالم الإسلامي بلا تحفّظات عقلية ، كيف تَسَنَّى لهذا الرجل أن يستبدل بميراثه الفكري والثقافي الغربي ثقافة إسلامية ؟! ، كيف تَسَنَّى له أن يعتنق دينًا وأيديولوجية اجتماعية هي في نظرهم ـ بلا منازع ـ أحط بمراحل من الدين والأيديولوجية الغربية ؟! » .

يُتابع « محمَّد أَسَد » فيقول : « **سألت نفسي : لماذا أخذ أصدقائي الغربيون هذا الزعم بأنه حقيقة لا نزاع فيها ؟ هل كَلَّفَ واحد منهم نفسه ـ أبدًا ـ أن يَهْتَمَّ باكتساب رؤية مباشرة للإسلام ؟ أم أن آراءهم عن الإسلام قائمة على حفنة من الكليشيهات والأفكار المبعثرة انحدرت إليهم جيلاً بعد جيل دون أن يتوقف أحدهم ليمحصها ؟ تُرى هل كانت النظرة الرومانية الإغريقية التي قسمت العالم إلى قسمين : روماني وإغريقي في جانب ، وبرابرة على الجانب الآخر ، هل لا تزال هذه النظرة كامنة في أغوار العقل الأوروبي (الغربي) حتى الآن ، لدرجة أنهم قد أصبحوا غير قادرين على الاقتناع ـ ولو حتى على المستوى النظري ـ بوجود قيمة إيجابية لأيِّ شيء خارج إطار ثقافتهم الأوربية ؟** » .

يُؤَكِّدُ « محمَّد أَسَد » هنا أنه في عيون الغربيين يبدو تاريخ العالم وثقافاته المختلفة على أنه مجرد امتداد للتاريخ الغربي خارج حُدُوده ، وأن مثل هذه النظرة لا يمكن إلا أن تكون نظرة خاطئة ومُشوّشة ، وترتيبًا على ذلك يسقط الأوربي والأمريكي بسهولة في وَهْمِ التفوق الثقافي للغرب على سائر الثقافات الأخرى ، ومن ثَمَّ

يعتقد أن أسلوب الحياة الغربية هو المقياس الوحيد للحكم على أساليب حياة الشعوب .

إنها نفس النظرة الرومانية الإغريقية القديمة التي ترى أن جميع الحضارات اللاغربية إنما هي خيارات مُعيقة للتقدُّم .. وعلى أفضل الأحوال ليست أكثر من فصل من فصول متلاحقة في نفس الكتاب الذي تُمَثِّلُ الحضارة الغربية آخر فصل فيه ، كأن « محمَّد أَسَد » بهذا الكلام لا يصف فقط ثقافة الغرب في عصره الذي يفصلنا عنه أكثر من نصف قرن ، وإنما يتنبأ بظهور العولمة الثقافية ويتحدَّث عن « نهاية التاريخ » لفوكوياما المفكر الأمريكي ذي الأصل الياباني !

يقول « محمَّد أَسَد » : **« عندما استعرضت هذه الأفكار أمام صديقي الأمريكي وهو رجل على قَدْرٍ عالٍ من الفهم والفكر وذو عقل راجح ، بَدَا متشكِّكًا في أول الأمر ، ولكنه قال : لو افترضنا أن تفكير الإغريق والرومان كان تفكيرًا قاصرًا بالنسبة للحضارات الأخرى ، ألم يكن ذلك هو النتيجة الحتميَة لصعوبات التواصل والاتصال بينهم وبين بقية العالم ؟ وإننا قد تغلبنا على هذه الصعوبات في العصر الحديث ، فقد بدأنا نهتمُّ بما يجري في العالم خارج إطار ثقافتنا ؟ هل نسيت الكتب الكثيرة عن الفنون والفلسفات الشرقية التي نشرت في أوروبا وأمريكا خلال ربع القرن الأخير ؟ الحقيقة أن أحدًا لا يستطيع أن يُنكر هذه الرغبة من جانب الغربيين لفهم ماذا عند**

الثقافات الأخرى لكي تقدّمه لنا ؟ » .

يرد « محمَّد أَسَد » شارحًا ومفصِّلاً :« أنت على حق إلى حدٍّ ما ، **فالنظرة الرومانية الإغريقية غير فاعلة الآن بنفس القوة التي كانت عليها في الماضي البعيد ، لقد فقدت حِدَّتها بالتأكيد ، فإن بعض المفكرين الأكثر نضجًا بدءوا يتشككون في كثير من المسلمات التقليدية وتزول عن أعينهم حالة الانبهار بجوانب كثيرة من حضاراتهم الغربية ، ومن ثم أخذوا يفتشون في أجزاء أخرى من العالم عن مُحَفِّزات روحية في ثقافات يفتقرون هم إليها ، ولعلهم قد أدركوا أن الأمر ليس مجرد كتاب واحد وقصة واحدة للتقدُّم الإنساني ولكن كُتُبًا كثيرة وقصصًا أكثر ، فالجنس البشري ـ بالمعنى التاريخي ـ ليس كائنًا متجانسًا وإنما مجموعات وشعوب ذات أفكار متنوعة فيما يتعلق بمعنى الحياة الإنسانية وغاياتها ، ومع كلٍّ هذا فما زِلْتُ أرى أن الغربيين لم يتجاوزوا الموقف الروماني الإغريقي بالنسبة للثقافات الأجنبية ، وإنما ـ بالأحرى ـ أصبحوا هم أكثر احتمالاً وتسامحًا . ولا ينطبق هذا التسامح أبدًا على موقفهم من الإسلام وحضارته وإنما على ثقافات أخرى غير الإسلام ، وجدوا فيها شيئًا من الجاذبية لعالم غربي في حالة من الجوع الروحي ، ولكن تذكّر أن هذه الثقافات تقع على مسافات بعيدة من الغرب ولا تُمَثِّلُ لِقِيَمِه أي نوع من التحدي ! » .**

تساءل الرجل مستغربًا : « ماذا تعني بهذا ؟ ! »

وأجاب « محمَّد أَسَد » قائلاً : « حسنٌ .. **عندما يناقش الغربي الهندوسية أو البوذية فهو واعٍ تمامًا بالفارق الجوهري بين هذه**

الأيديولوجيات وبين أيديولوجيته الغربية ، فهو قد يعترف بفكرة منها هنا أو هناك ، ولكنه لا يمكن أن يخطر بعقله احتمال إحلال هذه الأفكار محلَّ ثقافته الخاصة ؛ لأنه يضع في مقدمة رأسه أن هذا أمر مستحيل ، ومن ثَمَّ فإنه ينظر في هذه الثقافات الغربية بشيء من الاتزان وأحيانًا بشيء من التعاطف والتقدير ، ولكن عندما يصل الأمر إلى الإسلام فإن هذا الاتزان الغربي يضطرب لا محالة ويتصاعد من أعماقه تَعَصُّبٌ عاطفي مضاد » .

يتابع « محمَّد أَسَد » توضيح هذه النقطة في تحليله البديع للعقلية الغربية وموقفها من الإسلام بالذات ، وأحاول هنا إيراد الحوار بتفاصيله ، لا لأهميته فقط في تفسير مواقف ماضية ؛ ولكن لأنه لا يزال صالحًا بجدارة لتفسير المواقف الغربية المعاصرة من الإسلام ، وليست تصريحات بابا الفاتيكان الغبية ببعيدة عن الأذهان ، فما هي إلا نموذج متكرر للعديد من المواقف والتصريحات التي تفجّرت في الإعلام العالمي في الآونة الأخيرة ، مما يُؤَكِّد لنا أنَّ تحليلات « محمَّد أَسَد » لا تزال صائبة وثاقبة إلى حدٍّ مذهل رغم مرور أكثر من نصف قرن عليها .

يقول « محمَّد أَسَد » : « لقد فكّرت في الأمر وقلت لنفسي : هل يكمن سِرُّ التعصُّب الغربي ضد الإسلام في حقيقة أن قِيَمَ الإسلام قريبة من القِيَم الغربية بحيث تُمَثِّل تحدّيًا محتملاً لمفاهيم غربية كثيرة في

الحياة الروحية والاجتماعية ؟ ثم اهتديت إلى نظرية كنت أفكر فيها منذ بضعة أعوام ، وهي نظرية قد تساعدنا على فَهْم أفضل للتعصُّب الكامن في الأعماق ضد الإسلام ، مما نصادفه في الكتابات الغربية وفي الفكر المعاصر ، فلكي نجد تفسيرًا مُقْنِعًا لهذا التعصُّب ، على الإنسان أن ينظر إلى الوراء في التاريخ ويحاول أن يَفْهَمَ الخلفية النفسية للعلاقات المبكرة بين الغرب والعالم الإسلامي ، فما يعتقده الغرب ويشعر به تجاه الإسلام اليوم بُذُورُه متجذِّرة في انطباعات بُذِرَت خلال الحروب الصليبية . هنا صاح صديقي معترضًا : تقول : الحروب الصليبية ؟ ! .. أنا لا أظنُّك تقصد أن ما حَدَثَ منذ ألف سنة تقريبًا لا يزال يُؤَثِّرُ في الناس ، وفي هذا القرن العشرين !! » .

وَرَدَّ « محمَّد أَسَد » بلهجة تأكيدية وبلا مواربة : « ولكنه رغم كل شيء لا يزال يُؤَثِّرُ ، وأعرف أن هذا كلام يبدو غير مُصَدَّق ، ولكن تذكَّر أن نظرية التحليل النفسي التي تُؤْمِنُ بها أنت تنسبُ كثيرًا من الانفعالات والاتجاهات العاطفية للإنسان البالغ إلى خبرات سابقة حدثت له في سنوات الطفولة المبكرة ، وأنها انطمرت في اللاشعور ، ومِن ثَمَّ أصبح تأثيرها على سلوكه ومشاعره أكثر وأخطر ، وإن كان لا يدري حقيقة هذه المشاعر ومصدرها اللاشعوري ؟ ثم أليست الشعوب والحضارات في نهاية الأمر إنما هي مجموعات من الأفراد ؟ وأن نموَّ هذه الشعوب مرتبط بخبرات الطفولة الأولية ، وقد تكون خبرات سارة أو غير سارة ، ولكنها جميعًا تخضع لتفسيراتهم أو سوء تفسيراتهم الطفولية لهذه الخبرات والأحداث ، وأن قوة تأثيرها عليهم يعتمد فقط

على شِدَّة وَقْعِها الأصلي على مشاعرهم . ولا شكَّ أن القرن الذي تلا الحروب الصليبية ، والذي انتهى بانتهاء الألفية الأولى للميلاد ، يمكن اعتباره طفولة الحضارة الغربية القائمة » .

ويمضي « محمَّد أَسَد » يشرح باقتدار لصاحبه (وهو مُؤَرِّخ مرموق) ويُذَكِّره بما حَدَثَ من تطورات فكريَّة وسياسيَّة في أوربَّا قبل الحروب الصليبية وبعدها ، يقول : « غرقت أوربًا في عصور من الظلام تَلَت انقسام الإمبراطورية الرومانية إلى إمبراطوريتين : شرقية وغربية ، ثم جاء عصر الحروب الصليبية ، ولأول مرة بدأت تنظر في ثقافتها الخاصة بعيدًا عن التراث الروماني ، ومن ثَمَّ ظهرت الآداب الجديدة باللغات المحلية ملهمة بالخبرة الدينية المنبثقة من المسيحية الغربية ، وظهرت الفنون الجميلة تدريجيًا متأثرة بالهجرات المصحوبة بحروب القوط والهون والأفار ، مفارقة للظروف البدائية التي سادت في العصور المظلمة ، وهكذا انبثق عالم ثقافي جديد في أوربا . كانت أوربا في حالة انبثاق وولادة لحياة جديدة عندما صدمت بالحروب الصليبية ، ومن ثَمَّ كانت هذه الحروب لطمة - شَعرَ بها الجميع - في وَجْهِ حضارة بدأت تستيقظ وتشعر بذاتها . كانت هذه أول محاولة لأوربا تنظر فيها إلى نفسها باعتبارها كيانًا ذا وحدة ثقافية ، لم تشعر أوربا من قَبْل ولا من بَعْد بذلك الحماس الملتهب الذي أحدثته صدمة الحروب الصليبية الأولى مما لا يمكن مقارنته بأي حَدَثٍ آخر في مجرى تاريخها .. شعور كاسح تَخَطَّى كلَّ الحدود والسدود والانتماءات القَبَلِيَّة والطَّبَقِيَّة والعِرْقِيَّة . وهكذا هَيْمَنَ

على الصورة العامة الرباط الديني فبرزت فكرة العالم المسيحي ، وانبعثت فكرة أوربا الواحدة في هذا الإطار » .

يُثِيرُ « محمَّد أَسَد » نقطة هامَّة عندما يقول : « في اللحظة التي أهاب فيها البابا « أوربان الثاني » بجميع المسيحيين إعلان الحرب على الجنس الشرير الذين يحتلون الأرض المقدسة (يقصد المسلمين) فقد أَنْشَأَ - ربما بلا وَعْي منه - ميثاق الحضارة الغربية الحديثة » .

ثم يمضي « محمَّد أَسَد » في تحليلاته الدقيقة فيقول : « أعطت الحروب الصليبية أوربا وَعْيها الثقافي ووحدتها ، ولكن الخبرة التي صاحبت هذه الصدمة كان مُقَدَّرًا لها أن تصبغ الإسلام بلون زائف ، لتقدّمه شائهًا كريهًا في العيون الغربية . ولم يكن هذا بسبب الصدام المسلَّح وسَفْك الدماء ، فما أكثر ما نشبت الحروب بين الأمم وسالت فيها دماء غزيرة ثم طواها النسيان ! واندثرت عداوات لتحلَّ محلَّها صداقات ، ولكن الذي وَقَعَ في الحروب الصليبية لم يكن مجرد صِدَام مُسَلَّح ، وإنما كان بالدرجة الأولى سهامًا مصوَّبة إلى العقل الغربي لتشويه الإسلام ، فلكي يستمرّ الحثُّ على العداء والحرب كان لا بدَّ من وَصم نبي المسلمين بأنه المسيح الدجال (عدو المسيح) الذي تَصِفُه الأناجيل ، ووَصْم دينه بأبشع الصفات وأشنع العبارات ، وأنَّ الإسلام هو مصدر الفجور والضلالات ، وأنه دين الشهوات الحسية الحيوانية والعنف الغاشم ، وأنه مجموعة من الشعائر الظاهرية لا علاقة لها بالتصفية الروحية . كلُّ هذا دَخَلَ العقل الغربي واستقرَّ فيه جيلاً بعد جيل » .

يقول « محمَّد أَسَد » : « هكذا ظَهَرَ النبي محمد الذي أَكَّدَ على أتباعه ضرورة احترام أتباع الرسل والديانات الأخرى ، وحَذَّرهم أن الذي لا يُؤْمِنُ بالرسل الآخرين فإيمانه منقوص [محمد هذا هو الذي تحوَّل عند الأوربيين إلى « ماهوند » (وهو اسم مشتق من كلمة قذرة لا أجْرُؤ على ذِكْرِها ، ولكن من أراد مزيدًا من القرف فليبحث في القاموس عن كلمة Houd] .

يقول « محمَّد أَسَد » : « كان مناخ الحروب الصليبية فرصة سانحة لقوى شريرة استطاعت أن تَبْذُرَ البذور السوداء لكراهية دين وحضارة بلغت في سُمُوِّها الأخلاقي والإنساني قمةً لم تبلغها حضارة أخرى سابقة أو لاحقة ، وفي هذه الأجواء المعادية للإسلام ظهرت القصيدة المشهورة باسم (شانسو دي رولاند) لم تؤلف أثناء الحروب الصليبية ولكن بعدها بثلاثة قرون ، ومع ذلك عَبَّرت عن كراهية ملتهبة للإسلام والمسلمين . كانت القصيدة تصف أسطورة نصر أحرزه العالم المسيحي على الكفار المسلمين في جنوب فرنسا ، ولكنها أصبحت فيما بعد النشيد القومي لأوربا . وليس من قبيل المصادفة أن تُعْتَبَر هذه بداية الأدب الأوربي متميزة عن سوابقها في الآداب المحلية . ويتجلى التناقض هنا في أن النفور الغربي من الإسلام كان دينيًا في أصوله وعَبَرَ أجيال طويلة ، إلا أنه لا يزال مستمرًا بإصرار في اللاشعور الجمعي ، في زمن فَقَدَ فيه الدين وَهَجَه وسيطرته على خيال الإنسان الأوروبي ، وليس هذا مستغربًا ، فنحن نعرف أن الإنسان قد يفقد معتقداته الدينية التي تشرَّبها في طفولته

ولكنه لا يفتأ يعبر طول حياته اللاحقة عن التصاقه ببعضها بلا مبرر عقلي يسوّغها ، وهذا بالضبط ما حَدَثَ للشخصية الجمعية للحضارة الغربية ، فشبح الحروب الصليبية وما صاحبه من تشويه للإسلام ما زال يحوّم في سماء الغرب ، وكلُّ ردود الأفعال الغربية تجاه الإسلام والمسلمين ما زالت تحمل آثارًا واضحة الدلالة لهذا الشبح الذي قضى نحبه » .

خلال الحديث الطويل ظلَّ صديقه صامتًا وإن لم يتوقف عن الحركة قاطعًا أرض الغرفة ذهابًا وإيابًا ، يداه في جيبيْ معطفه ويهز رأسه متحيرًا ثم بَدَأَ يتكلم فقال : « **ربما يكون هناك شيء من الحقيقة في كلامك حقًّا ، ربما ، وإن لم أكن الآن في وَضْعٍ يسمح لي بالحكم على نظريتك ، ولكن على أي حال وفي ضوء ما ذكرته أنت ألا ترى أن حياتك التي ترى أنها شديدة البساطة لا تعقيد فيها ، قد تبدو شديدة الغرابة وغير عادية في نَظَرِ الغربيين ؟ هل حاولت إشراكهم في خبراتك الخاصة ؟ لماذا لا تكتب تاريخ حياتك ، أنا متأكد أن قراءة سيرتك الذاتية ستكون بالغة الإثارة** » .

أجاب « محمَّد أَسَد » ضاحكًا : « **ربما أقنعت نفسي بترك الخدمة في العلاقات الخارجية حتى أتفرغَ لتأليف كتاب كهذا ، فالكتابة ـ على كل حال ـ هي مهنتي الأصلية** » .

يقول « محمَّد أَسَد » : « **هذه الإجابة الضاحكة المازحة ـ مع مرور الأسابيع والأشهر بعد هذه المقابلة ـ بدأت تتداح تدريجيًا ، وشرعت أفكر جِدِّيًّا في تدوين قصة حياتي ؛ إذ رأيت أنها قد تساعد – ولو بقدر**

محدود - في رَفْع النقاب الذي حَجَبَ وجهَ الإسلام وثقافته الناصعة عن العقل الغربي . لقد كان طريقي إلى الإسلام متميزًا في كثير من جوانبه ، فأنا لم أُسْلم لأنني مكثت فترة طويلة بين المسلمين - بل على العكس من ذلك تمامًا - إذ قررت أن أعيش مع المسلمين لأنني اعتنقت الإسلام . لذلك قلت : ألا أستطيع بتوصيل خبرتي الخاصة إلى القراء الغربيين أن أساهم في تبادل الفهم بين العالم الإسلامي والعالم الغربي بأكثر مما لو بقيت في وظيفتي الدبلوماسية ، فهذه وظيفة يمكن أن يشغلها شخص آخر من أبناء الوطن ؟ ولكن كم مِن الناس مَن يستطيع أن يتحدَّث إلى الغربيين مثلي عن الإسلام بلغتهم . أحسب أنني أجيد اللغتين والثقافتين لغة الإسلام وثقافته ولغة الغرب وثقافته ، وهكذا استقلْتُ من وظيفتي في نهاية سنة ١٩٥٢ وتركت الخدمة في وزارة الخارجية الباكستانية لأتفرغ لكتابة هذا الكتاب : « الطريق إلى مكة » ، وهو كتاب لا يتناول حياتي كلها ، وإنما فقط الفترة التي سبقت خروجي من الجزيرة العربية إلى الهند ، هذه السنوات المثيرة التي قضيتها مسافرًا مرتحلاً بين العديد من البلاد ، قاطعًا الصحراء الليبية ، متسلِّقًا قممَ الجبال الثلجية في بامير ، مُبحرًا في مضيق البسفور وبحر العرب . ولكن الفترة التي قضيتها في رحلتي الصحراوية بقلب الجزيرة العربية قاصدًا مكة في أواخر صيف ١٩٣٢ كانت هي الفترة الحاسمة من حياتي ، ففي خلال الثلاثة والعشرين يومًا التي قضيتها في هذه الرحلة كانت وجهة حياتي قد تبلوَرَت وأصبحت واضحة أمام ناظري » .

يقول « محمَّد أَسَد » : « إنَّ الجزيرة العربية كما صَوَّرْتها بعشق في

صفحات هذا الكتاب لم تَعُدْ قائمةً الآن ، فوحدتها وتكاملها واندماجها الحالي بقوة تَدَفُّقِ البترول والذهب الذي جَلَبَه البترول أفْقَدها بساطتها الرائعة ، واندثرت معها كثير من اللمسات الإنسانية الفريدة التي طالما أثلجت صدري وشرحت نفسي لروح الإسلام . نعم إنَّه ليؤلمني كثيرًا أن أشياء عزيزة على نفسي اندثرت ولم يعد باقيًا منها سوى ذكريات عن هذا الطريق الصحراوي الطويل ، الذي قطعته مع صاحبي على ناقتين ترحلان في ضوء سابح في الفضاء ونحن في طريقنا إلى مكة » .

كان أول ما تبادر إلى ذهني لدى عودتي من لندن أن أسأل عما إذا كان كتاب « محمَّد أَسَد » « الطريق إلى مكة » قد تمت ترجمته إلى العربية ، وكنت سأدهش لو لم يكن قد تُرْجِمَ بالفعل ، ولكن كانت إجابة صديقي العزيز الأستاذ « حسين عاشور » بالإيجاب ، ثم أتبع ذلك بإعارتي نسخة من الكتاب في طبعته الثامنة فسررت بهذا الاهتمام ، وأثلج صدري أن المتعة في قراءة الترجمة العربية لا تقلُّ عنها في الأصل الإنجليزي ، وليس هذا بكثير على المترجم النابه « عفيف بعلبكي » .

لقد اختار للترجمة عنواناً آخر هو : « الطريق إلى الإسلام » ولكنه لم يخرج بهذا العنوان عن المغزى والهدف ؛ فالطريق إلى مكة كان طريق « محمَّد أَسَد » إلى الإسلام .

كذلك وجدت في صَدْرِ الترجمة العربية تقديمًا شيِّقًا بقلم

الدبلوماسي الرائد والمفكِّر الإسلامي المعروف « عبد الوهاب عزام » أقتبس منه بعض كلمات : « محمَّد أَسَد » لم ينشأ عربيًا ولا مسلمًا ولكنه أحبَّ العرب وآثرهم وفضَّل الإسلام واختاره دينًا ، بعقله المستقلّ وفِكْرِه الحرّ ، ونفسه التي تُكْبر الأخلاق أنَّى وجدتها ، وتُقَوِّم الفضائل حيثما شهدتها ، وببصره الثاقب يجوز الظواهر إلى الحقائق لِيَقَوِّم الإنسان بإنسانيته لا بثروته ، وبفضائله لا بصناعته ، وبأصْغريْه : قلبه ولسانه لا بأُبَّهَتِه وسلطانه . إنها استجابة نَفْسٍ طيبة لمكارم الأخلاق ومحاسن الآداب ، وإعجاب قَلْبٍ كبير بالفطرة السليمة ، وإدراك عَقْلٍ منير للحقِّ والخير والجمال ، يتجلَّى في أُنَاس صادقين مخلصين وإن بدوا في ثيابِ الفقراء وعدَّة الضعفاء » .

◘ ◘ ◘ ◘

بداية الطريق

يعود « محمَّد أَسَد » بذاكرته إلى أيام الطفولة حينما ارتفعت قامته وأصبح قادرًا على رُؤْيةِ ما على مكتب أبيه من أدوات وأشياء لأول مرة ، ولكن شيئًا واحدًا غريبًا هو الذي جَذَبَ اهتمامه أكثر من أي شيء آخر ، تناوله وأَخَذَ يَفْحصه بيديه وعينيه وأذنيه جميعًا ، إنها قوقعة بحرية قديمة ، إذا وَضَعَها على أذنه سَمِعَ فيها طنينًا عجيبًا ، فإذا أبعدها اختفى الطنين ، فإذا وَضَعَها ثانية على أذنه عاد الطنين إليها مسموعًا مدوِّيًا ، وكانت خِبرة جديدة وعجيبة في مجرى حياة طفل عاشق للاستطلاع والمغامرة بفطرته ، لذلك أَخَذَ يُكرِّرها مندهشًا ، والنتيجة دائمًا هي هي في كل مرة !

ويُعلِّقُ « محمَّد أَسَد » على هذه الخبرة المدهشة فيقول : « **لم أستطع في ذلك الوقت أن أعرف أبدًا ما إذا كان الصوت يبقى في القوقعة بعد أن أُبعِدَها عن أذني ، وكيف يتسنّى لي أن أعرف هذا ؟** » ..

لم يستطع « محمَّد أَسَد » في هذه السِّنِّ المبكرة أن يُدْرِكَ أن هذا السؤال الذي حَيَّرَه صبيًّا هو بذاته السؤال الذي حَيَّرَ الفلاسفة والحكماء على مرِّ العصور : هل هذا الشيء الذي نُسَمِّيه (الحقيقة) منفصل عن عقولنا ، بمعنى أنَّ للحقيقة وجودًا مستقلاً خارج عقولنا سواء أَدْرَكَتْهُ هذه العقول أم لم تدركه ؟ أم أنَّ عقولنا هي التي تخلقُ الحقيقة ؟ !

يقول « محمَّد أَسَد » : « **لم أكن حينذاك أعرف الإجابة ، وعندما أنظر إلى الوراء أجِدُ أنَّ الحيرة الكبرى التي نشأت عندي طفلاً هي نفسها التي حَيَّرتني بعد ذلك ردْحًا من الزمن ، كما حَيَّرَتْ عقلَ كلِّ كائن حيّ مفكِّر كان بوعي منه أو بغير وعي . وكان سرُّ رحلتي في الحياة التي دفعت بي من وسط أوربا إلى الجزيرة العربية يكمُن في رغبة دفينة للبحث عن حقيقة ذاتي ، أن ألتقي بنفسي ، أن أكتشف تلك الحقيقة المبهمة التي تعشقُها روحي ، ولكنه كان طريقًا مُمْتِعًا إلى أقصى حدود المتعة كلما استحضرته في ذاكرتي** » .

نفحات من ذكريات الطفولة

يتذكَّر « محمَّد أَسَد » من طفولته كيف نَشَأ في مدينة بولندية أصبحت جزءًا من النمسا ، ويتذكر البيتَ والشارعَ الذي أَحَبَّه والبيئة المحيطة بِخُضْرَتها وجمالها ، وكيف كان يقضي الصيفَ في مزرعة جدِّه لأمه ، وكان هذا رجلاً غنيًّا من رجال البنوك ، ويتذكر رحلاته مع والديه إلى برلين وإلى جبال الألب وغابات بوهيميا وبحر الشمال والبلطيق ، ويتذكر القطار وحركته في السفر ، والمناظر الخَلاَّبة على طول الطريق . كانت طفولة سعيدة بكل المقاييس ، فقد كان أبواه يعيشان حياة مريحة هانئة . ويلفتنا « محمَّد أَسَد » إلى تأثير أبويه عليه فيقول : « **أخذت من أمي الهدوءَ والصبرَ واحتمالَ المكاره وتحمُّلَ أخطاء الآخرين ، وأخذت من أبي القلق النفسي** » .

ويُرجِعُ « محمَّد أَسَد » أسبابَ قَلَقِ أبيه إلى أنه كان يحلم في شبابه أن يكون عالمًا من علماء الطبيعة ، ولكن انتهى به الأمر إلى أن يُصْبِحَ محاميًا ، ورغم أنه كان محاميًا ناجحًا في مهنته إلا أنه لم يَتَكَيَّف تمامًا بهذه المهنة ، كان من أَحْسَن لاعبي الشطرنج ، وربما كان هذا سرَّ صداقته الراسخة مع قسيس أرثوذكسي من أصل يوناني ، كانا يقضيان معًا ليالي طويلة في هذه اللعبة الشَّيِّقة ، ثم يتناقشان بعض الوقت في أمور الديانتين اليهودية والأرثوذكسية. من هنا نعرف أن ظروف حياته أتاحت له أن يَسْتَمِعَ إلى النقاش في الأديان والمقارنات المعقودة بين اليهودية والمسيحية ، ويُخْبِرُنا بأن جدَّه كان حريصًا على أن يَتفرَّغَ أبوه لدراسة اللاهوت اليهودي ليصبح « كاهنًا » في المعبد فهذه مِهْنَةٌ قديمة تجري في العائلة منذ زمن طويل ، ولكنَّ أباه استطاع أن يَتَنَصَّلَ منها . ثم يكشفُ لنا عن حقيقة أخرى وَعَتْهَا ذاكرتُه عن خَرْقٍ هذا التقليد العائلي الموروث ، ولكن بشكل أكثر عُنْفًا وتمرُّدًا ، فهو يذكر لنا أَنَّ واحدًا من أجداده لم يَخُن التقاليد فحسب ، بل تَرَكَ دينَ آبائه واعتنق المسيحية » .

يقول ـ عن ذلك ـ « محمَّد أَسَد » : **« لم يكن اسم جدي هذا يُذْكَرُ في الوسط العائلي إلا فيما نَدَرَ ، وقد علمت أنه كان يعملُ كاهنًا في المعبد ، ولكنه كَرِهَ هذه المهنة حيث أنها لم تكن تَدِرُّ عليه ما يكفي**

من المال لتوفير حياة كريمة في ذلك الزمن (النصف الأول من القرن التاسع عشر) ، ومن ثَمَّ كان يذهب إلى مدينة « ليبزج » مركز تجارة الفِراء في أوربا ليشتري ويبيع ويكسب بعض المال . كان متزوجًا من امرأة لم يحبها ، ولعله أراد أن يتخلَّص من المهنة الشحيحة والمرأة الكريهة فأخذ حصَانَه والعربة إلى « ليبزج » في إحدى المرّات ، وهناك باع العربة والحصان ثم هاجر إلى إنجلترا ولم يَعُد . استطاع هناك أن يكسب عيشه من بعض الأعمال اليدوية المتواضعة ، ولكنه في نَفْس الوقت انخرط في دراسة علم الفلك والرياضيات في المساء ، ووجد هناك مَن اكتشف مواهبه فأعانه على إتمام الدراسة في جامعة أكسفورد ، وهكذا أصبح عالمًا ومفكرًا متميزًا ، وتحول إلى المسيحية ثم أرْسَلَ ورقة الطلاق إلى زوجته اليهودية وتَزَوَّجَ واحدة من « الأميين » . ولم يُعرف عن حياته - بعد هذا - شيء أكثر من أنه اشتهر كعالم في الفلك وانتهت حياته كأستاذ بالجامعة » .

يقول « محمَّد أَسَد » : « لعل هذه الواقعة المأساوية هي التي دفعت جدي ليتخذ موقفًا متشدّدًا رافضًا لأي دراسة أخرى يقومُ بها أبي لعلوم غير يهودية ، ولكنَّ أبي لم يكن مهيئًا نفسيًا لمهنة كهنوتية فكان يدرس التلمود كَارِهًا بالنهار ، ثم يدرسُ أشياء أخرى يحبها في المساء ، فلما تقدَّم إلى امتحان البكالوريا نَجَحَ فيه بامتياز . وبالشهادة في يده ذَهَبَ ليواجه جدي بالحقيقة فاضطر جدي للسماح له بحضور الجامعة ، ولكن ظروف العائلة المالية لم تكن تسمحُ له بدراسة العلوم الطبيعية فاتجه مضطرًّا لدراسة القانون » .

لقد وَلّدَتْ هذه التجربةُ إحباطًا شديدًا له دَفَعَه لأن يحاول تحقيق حلْمِه الضائع عن طريق ابنه ليوبولد فايس « محمَّد أَسَد » ولكنه أخفق مرة أخرى ، فقد كان الشاب عازفًا عن دراسة العلوم الطبيعية والرياضيات . وفي هذا يقول : « **لم أكن غبيًا ، ولكني كنت تلميذًا عديم الاكتراث ، فقد كانت هذه العلوم باعثةً على الملل النفسيّ ، وإنما وجدْتُ نفسي منجذبًا إلى دراسة الآداب والشعر الرومانسي ، ومن ثَمَّ خاب أملُ أبي مرة ثانية ، فاكتفى بتقريظ أساتذتي لتفوّقي في الآداب الألمانية والبولندية والتاريخ ، وكعادة الأسرة كان عليّ أن أتلقّى في المنزل دروسًا في أساسيات عقائد الديانة العبرية ، ولم يكن هذا لأن أبواي ملتزمان دينيًا وإنما بحكم العادة الجارية فقط ، فقد كانا ينتميان إلى جيل وزمن انحدرت فيه فكرة الدين في أوربًا إلى واحد من أمرين : إما مجرد شعائر جافّة تُؤَدَّى بحكم العادة تَمَشّيًا مع تراثهما الديني التقليدي ، وإما لا مبالاة من جانب الأغلبية الأكثر تَحَرُّرًا من الذين اعتبروا الدين خرافة بالية عَفَا عليها الزمن . لم يقطع هؤلاء صِلَتَهم بالشعائر الدينية نهائيًا ولكن كانوا يمارسون بعضها على مَضَضٍ وهم يشعرون بالخجل ؛ لأنها في حسبانهم شعائر لا عقلانية** » .

يقول « محمَّد أَسَد » : « **كان أبواي ينتميان إلى الفئة الأولى ، وإن كنت أشعر أن أبي كان أكثر ميلاً إلى الفئة الثانية ، ويبدو تناقضه واضحًا في إصراره على أن أهْتَمَّ بقراءة الكتاب المقدس . وهكذا ما كِدْتُ أبلغ الثالثة عشر من عمري حتى أصبحت أجيد اللغة العبرية قراءة ، وأتحدثها**

بطلاقة ملحوظة ، وأجدْتُ إلى جانب ذلك اللغة الآرامية ، اكتسبتُها بالسرعة التي اكتسبت بها اللغة العربية فيما بعد . درست التلمود بمكوّناته المسماة (المشناة والجمارة) بلغاتها الأصلية وأصبح كلُّ هذا مألوفًا عندي مُيَسَّرًا ، حتى إنني استطعت أن أناقش بثقة كاملة الفرق بين التلمودين البابلي والفلسطيني » وقد استغرقْتُ فترة طويلة في دراسة الترجمة الآرامية للكتاب المقدس كأنني أَتَهَيَّأُ لوظيفة حاخام » .

فماذا كانت حصيلة هذه الدراسات اللاهوتية العميقة ؟ يقول « محمَّد أَسَد » : « **لم أتوقف كثيرًا عند التعاليم الأخلاقية في كتاب العهد القديم ، ولا عند الإيمان القوي باللّٰه لأنبياء بني إسرائيل ، ولكن استوقفتني فكرةُ الألوهية فأطلْتُ النظرَ فيها ، حيث تَبَيَّنَ لي أنّ إلهَ العهدِ القديم والتلمود كان مَعْنِيًّا عناية غريبة بالطقوس والشعائر التي يفترض في العُبَّاد أن يقوموا بها ، إنه مشغول بشكل مستغرب بمصير شعب واحد هو العبرانيين ، فالعهد القديم يُصَوِّرُ (الإله) ليس بصفته الخالق الراعي لكل البشر ، ولكنه إلهٌ قَبَلِيٌّ سَخَّرَ كلَّ مخلوقاته للشعب المختار يَمْنَحُهم النصرَ إذا صلحوا واستقاموا ويُعَذِّبُهم على يد الكفار إذا انحرفوا عن الطريق الذي رَسَمَه لهم ، وهكذا تجرَّد العهدُ القديم من فكرة الرسالة العامة الشاملة لكل البشر** » .

هنا يُرينا « محمَّد أَسَد » أنَّ هذه الفكرة القاصرة عن اللّٰه التي تَوَصَّلَ إليها في دراسته التوراتية المتعمقة ، هي التي أَثَّرَتْ تأثيرًا عكسيًّا على خلاف ما كان أبواه يتوقعان .

ثم يتدارك فيقول : « ولكن هذه الدراسة في سنوات لاحقة كانت نافعة لي بشكل آخر ؛ إذ أنها ساعدتني على أن أَفْهَمَ الغاية الأساسية التي يتطلبها الدين أيًا ما كان هذا الدين » .

ثم يتابع : « في ذلك الوقت المبكر لم تدفعني خيبة أملي في اليهودية أن أبحثَ عن الحقائق الروحية في ديانات أخرى ، بل وجدْتُ نفسي مُتَسَاقًا مع شبان آخرين في تيار إلحادي يرفضُ كلَّ المؤسَّسات الدينية ، ولأنَّ ديني لم يكن في نظري أكثر من مجموعة من القيود والممنوعات ؛ لم أشعر ـ بعد انصرافي عنه ـ أنني افتقدت شيئًا ذا قيمة أو أصبحت أسوأ عن ذي قَبْل ، فالأفكار الدينية والفلسفية برمَّتِها لم تكن ـ عندئذ ـ لتعنيني كثيرًا ، وإنما كنت أتطلع مثل الشبان الآخرين من أقراني إلى الحركة والمغامرة والإثارة والمتعة » .

حيرة العقل والروح

كانت العقود الأولى من القرن العشرين تتأرجح في فضاء روحي ، فكلُّ القيم الأخلاقية التي اعتادتها أوربًا لقرون ماضية اهتزت واضطربت تحت تأثير الأحداث التي وقعت خلال الحرب العالمية الأولى بين ١٩١٤ و ١٩١٨ ، ولم يكن هناك أي أَثَرٍ لقيم بديلة ، ومن ثَمَّ ساد شعورٌ بالمرارة وانعدام الأمن في محيط فكري واجتماعي مضطرب ، وبَدَا أن كلَّ شيء يَنْدَاحُ في جيشان لا شكلَ له .

كان الشباب يعانون اضطرابًا روحيًا فلا يجدون مستقرًا

لمواقع أقدامهم .

يقول « محمَّد أَسَد » : « **في غياب قيم أخلاقية موثوق بها لم يستطع أحدٌ أن يُقَدِّمَ للشباب إجابةً شافيةً عن التساؤلات التي كانت تُحَيِّرُنا ، فالعلم يقول : « إن المعرفة هي كلُّ شيء » ، متجاهلاً حقيقة أن المعرفة بدون وازع أخلاقي يُمْكِنُ أن تُؤَدِّي إلى فوضى مُهْلِكَة .** كان الإصلاحيُّون والثوريُّون والشيوعيُّون جميعهم يريدون عالمًا أفضل وأسعد ، ولكنَّهم كانوا يُفكِّرون فقط في الظواهر الخارجية للأوضاع الاجتماعية والاقتصادية ، ولكي يعوِّضوا النقصَ في مذاهبهم الفكرية رفعوا تفسيرهم المادي للتاريخ إلى مستوى الميتافيزيقا ، وهكذا خَلَقُوا ميتافيزيقا غريبة ضد الميتافيزيقا الدينية ، أمَّا المتدينون فكان أكبرُ هَمِّهِم أن ينسبوا إلى الألوهية صفاتٍ مستخلصةً من عاداتهم الفكرية ، علمًا بأن هذه العادات الفكرية قد أصبحت قوالبَ جامدة خالية من المعنى . أما نحن الشباب فكُنَّا نرى هذه الصفات الإلهية التي يفخرون بها متعارضة مع ما يَحْدُثُ أمامنا في العالم ، وكان هذا يعني لدي الشباب أنه لا إله ! كُنَّا نعتقدُ أنَّ أساس كلِّ هذه الفوضى الفكرية والروحية يرجع إلى أنَّ حراس الأديان قد ألبسوا الإلهَ ثيابَهم هم فحجبوه بذلك عن البشر ، وما ذلك إلا لأنهم أعطوا أنفسَهم الحقَّ في تعريف الألوهية بحسب أهوائهم ، وقد أدَّى هذا الاضطراب الشامل بكثير من الناس إمَّا إلى فوضى أخلاقية كاملة أو دَفْعِهِم للبحث عن مُقْتَرب شخصي اجتهدوا فيه للوصول إلى ما قد يُشَكِّلُ معنى (للحياة الطيبة) » .

محاولات فاشلة

من هذا المنطق شَرَعَ « محمَّد أَسَد » يَدْرسُ تاريخَ الفنِّ على أمل أن يجد فيه تلك الوحدة « الجُوَّانيَّة » لأجزاء هذا العالم التي تبدو في ظاهرها مُمَزَّقَة مُفَكَّكَة ، ولكنه أصيب بخيبة أمل كبيرة ؛ لأن أساتذته كانوا يُرَكِّزون على الجوانب الشكلية « البَرَّانيَّة » التي تُؤَلِّفُ (في نظرهم) العناصر والمقومات الجمالية ، وكان هو يعتقد أنَّ هذا مُقْترب خاطئ لفهم الفنِّ ؛ لأن الفنان الحقيقي في رأيه يتحسَّس النبضات الروحية في أعماق الأشياء الظاهرة ، ولا يتوقَّف عند الأشكال البرانية للأشياء . فلما يَئِسَ « محمَّد أَسَد » من هذا الباب أغلقه وانصرف إلى دراسة « التحليل النفسي » ، وكانت مدرسة « فرويد » في هذا المجال قد اشتهرت وفَجَّرَت ثورة في الفكر الإنساني باكتشافها أن الدوافع اللاشعورية الكامنة ، والتي تشكَّلت في الطفولة الأولى ، هي التي تتحكم في سلوك الإنسان على مدى حياته اللاحقة .

كانت المناقشات الجارية بين المثقفين في مقاهي فيينا تدور حول القضايا الجديدة التي أثارتها مدرسة فرويد .

وكان « محمَّد أَسَد » يلتقي - في إطار هذه المناقشات - روادَ مدرسة التحليل النفسي من أمثال « ألفرد أدلر » و « هرمان ستيكل »

و « أوتوكروس » .

يقول « محمَّد أَسَد » : « **لم أعترض على مبادئ التحليل النفسي ، ولكن لم تُعْجِبْني الغطرسةُ التي يبديها أتباع هذه المدرسة ، فقد اختزلت نفسيةَ الإنسان إلى مجرد ردودِ أفعالٍ عُصَابية مَرضِيَة ، وفوق ذلك لم يكن لديهم أي شيء يهدينا إلى الحياة الطيبة أو النفسية السَّويَّة غير المَرضِيَّة ، وعلى أي حال لم أكن في ذلك الوقت مهتمًا بالمبادئ النظرية المجردة قَدْرَ اهتمامي بالأشياء المرئية المحسوسة ، وأقصد بذلك الناس والأنشطة والعلاقات الإنسانية** » .

في تلك الظروف بَدَأَ « محمَّد أَسَد » يتنبه إلى العلاقة بين الرجال والنساء ، وكيف أصابها تغيير شامل بعد الحرب ، فقد انهارت الحواجز التقليدية التي كانت تحول بين اختلاط الجنسين ، وانطلقت فكرة النسبية الأخلاقية على يد الفيلسوفين « نيتشه » و « شبنْجلر » . وشَرَعَ الناس يكتبون بجرأة عن حريةِ الجسدِ والمتعةِ الجسدية .

وقد انعكست هذه الأفكار في حياة « محمَّد أَسَد » العقلية فتضخمت لديه مشاعر القلق وجعلت متابعته للدراسة الجامعية أمرًا صعبًا ، فَقَرَّرَ هَجْرَ الدراسة متطلِّعًا إلى فرصة للكتابة الصحفية .

وفي يوم من أيام صيف سنة ١٩٢٠ رَكبَ القطارَ وودَّع فيينا ولم يكن معه من المال سوى خاتم من الماس وَرِثَه عن أمه . لم

تكن الحياة في برلين سهلة ، فقد اضطر للعمل في غَسْلِ الأطباق بالمطاعم ، ولكنه في أثناء ذلك كان يتجوَّل في دور الصحف ويلتقي رؤساء التحرير ، وظلَّ يمارس الجوع والتشرُّد حتى خريف ١٩٢١ عندما تمكَّنَ من اختراق أسوار الصحافة ، إذْ أَسْنَدَ إليه أحدُ رؤساء التحرير وظيفةَ عامل تليفون ولكن من نوع خاص ، فقد كانت مهمته بثّ الأخبار إلى عدد من الصحف المحلية .

وفي ذات يوم هبطت عليه فرصة نادرة ، فقد جاءت زوجة الأديب الروسي « مكسيم جوركي » في زيارة إلى برلين وحرصت على أن تُخْفِي نفسها تمامًا عن أعين الصحفيين ، ولكن ساعد « محمَّد أَسَد » صديق له على لقائها وتسجيل حديثٍ صحفي معها ، وكان نَشْرُ نتائج هذا اللقاء ضربةً صحفية ناجحة ، فقد انفتحت أمامه أبواب الشهرة الصحفية كما فُتحت له الأبواب المغلقة للكتابة الصحفية .

كان التحاق « محمَّد أَسَد » بالعمل في الصحافة نقلةً هامَّةً في مجرى حياته ، لا من حيث أنها كانت مصدرًا لخبرات واسعة وثقافات غنية بقدرِ ما كانت مركبته في رحلته إلى الشرق ، حيث بَدَأَ شوطَه الأخير والطويل الذي استقرت فيه روحُه بصفة حاسمة ونهائية على أرض الحرمين الشريفين بمكة والمدينة .

وأودُّ أن أُسَجِّلَ هنا أن وَصْفَ « محمَّد أَسَد » للأوضاع الأوربية المضطربة بعد الحرب العالمية الأولى ينطوي على ملامح قوية من أوضاعنا المضطربة في العالمين العربي والإسلامي خلال العقد الحالي من القرن الواحد والعشرين ، أي بعد قرن من الزمان تقريبًا ، وإذا كانت تلك الأوضاع قد أسهمت في تمهيد الطريق لحرب عالمية ثانية في أوروبا ، فإنني أتوجس خيفةً من أن تنتهي الأمور عندنا إلى ثورة عمياء تأكل الأخضر واليابس .

فماذا يقول « محمَّد أَسَد » ؟ : « **كانت أيامًا غريبة ومتقلبة في بداية القرن العشرين ، فقد انتشرت ديانةٌ جديدة يمكنُ أن نطلقَ عليها اسم « عبادة التقدُّم الماديِّ » ، تتمثل معابدُها في المصانع الكبرى ودور السينما ومعامل الكيمياء وصالات الرقص والأعمال الهيدروكهربائية ، أما قساوستها فكانوا رجال المال والبنوك والسياسيين والمهندسين ونجوم السينما ورجال الإحصاء ورجال الصناعة ، ومع ظهور هذه الديانة العجيبة تَفَشَّى الانهيار الأخلاقي في كل مكان ، وبرزت خلافات عميقة حول معنى الخير والشرِّ ، وخضعت القضايا الاجتماعية والاقتصادية لقاعدة السرعة ، وانتشرت ظاهرة امرأة الشوارع التي تهبُ نفسَها بالأجْرِ لأي طالب متعة حيثما شاء ، وأصبح السعي دائبًا نحو المتعة والشهوات الشخصية ، وأدى هذا بالضرورة إلى انشقاق في المجتمعات وتصادم بين الأفراد حيثما تعارضت المصالح والأهواء . وفي المجال الثقافي تربعت النفعية المطلقة على عَرْش الفكر الأوربيّ ، وأصبح المقياس**

الوحيد للحقِّ والباطل هو النجاح المادي » .

في هذا المناخ شَعرَ « محمَّد أَسَد » بالاضطراب والتعاسة وهو يرى كيف تتمزَّق العلاقات الحميمة بين الإنسان وأخيه الإنسان ، رغم الهستيريا الدائرة في الإعلام حول مزاعم ودعوات لوحدة الأمة والتحام المجتمعات وضمّ الصفوف !

كان هناك أناس يحلمون بمستقبل أفضل ، ولكن « محمَّد أَسَد » لم يستطع أن يشاركهم في هذه الأحلام بل شعر بأنه لا ينتمي إليهم في حقيقة الأمر ، وظلَّ هذا الشعور يتنامى في أعماقه مصحوبًا برغبة غائمة ضبابية عَبَّرَ عنها بقوله : « **كنت لا أدري إلى من أنتمي أنا إذن! بمعنى أنني كنت تواقًا إلى أن أكونَ جزءًا من كيان آخر هو ماذا ؟ لا أدري !** » .

الصورة المقوْلَبة للإسلام في أوربا

من المهم أن نتابع هنا حديث « محمَّد أَسَد » وهو يصف لنا الإسلام كما وقعت صورتُه في إدراكه عند هذه النقطة من تطوره الروحي والفكري حيث يقول : « **لقد نَشَأْتُ في أوربا وفي قلب الثقافة الأوربية ، وكل ما كنت أحلم به هو أن أجد في إطار هذه الثقافة نفسها تطورًا ما لحياتي العقلية والروحية ، وأن أُحَقِّقَ ما أصبو إليه من مغامرات ، ومثل كل الأوربيين درجت على فكرة أنَّ الإسلام وكل ما يمثله هذا الدين ليس أكثر من مَعْبرٍ رومانسي في التاريخ الإنساني ،**

سرعان ما تجاوزته البشرية ، ومثل كلّ الأوربيين كنت أنظر إلى الإسلام باعتباره دينًا بدائيًا قاصرًا من الناحيتين الروحية والأخلاقية ، ولا يمكن مقارنته بعُمق ورحابة الديانتين الأوربيتين المسيحية واليهودية ، فَهُمَا وحدهما يمكن أخذهما مأخذ الجدّ . بهذه الرؤية الضبابية عن الإسلام بدأت رحلتي إلى بلاد الشرق الإسلامي في صيف سنة ١٩٢٢ » .

انطباعاته عن مصر وسيناء

أثناء رحلته بحرًا تَعَرَّف « محمَّد أَسَد » وهو على ظَهْرِ السفينة بقسيس نصفه بولندي ونصفه الآخر فرنسي واسمه الأب فيلكس ، كان ذاهبًا إلى مصر ليتولى تدريس التاريخ في كلية بالإسكندرية ، ودار بينهما نقاش حول المسيحية وعن الجسد من حيث إنه كان سبب سقوط الإنسان في الخطيئة الأولى ،وأنه هو العائقُ أمام الروح للوصول إلى الحرية والخلاص والعودة إلى أصلها الإلهي .

ولكن « محمَّد أَسَد » كان يرى شيئًا خاطئًا في التمييز بين الروح والجسد ؛ ذلك أنه لم يكن يرى مبررًا لحرمان الجسد ، وكان يحلم بشكل من الحياة يستطيع الإنسان فيه أن يحيا بكلّيته روحًا وجسدًا ، بحيث لا تكون فيه عداوة بين الروح والحواس وإنما يتحقَّقُ للإنسان فيه وحدته الجوانية ، ولكن المسيحية تُحَقِّقُ للروح حريتها بانطلاقها من علائق الجسد ، وهذا هو معنى الخلاص المسيحي الذي ضَحَّى

المسيح بنفسه (حسب زَعْمِهم) لتحقيقه .

وهنا يوجه « محمَّد أَسَد » سؤالاً محوريًّا إلى الأب « فيلكس » حيث قال : « **تزعم أن الإنسان لا يستطيع أن يصلَ إلى الإيمان بقدراته العقلية وحدَها ، وأنَّ الرَّبَّ هو الذي يفتحُ عليه به ، ولكن كيف يصلُ الإنسان إلى الإيمانِ وهو لا يُؤمِنُ أصلاً بهذا الرَّبِّ ؟ تقول : يُصَلِّي لكي يفتحَ اللَّه عليه ! وأقول : كيف يُصَلِّي مَنْ لا إيمانَ له ؟ ! إنَّكَ تضعني في حلقة مفرغة ولا تعالجُ مشكلتي** » ، هَزَّ الأب فيلكس كتفيه وقال : « **إذا لم تستطع أن تَصلَ بتجربتك الخاصة مع اللَّه إلى الإيمان فَدَعْ شخصًا آخر يرشدُك ، شخصًا يمتلكُ هذه التجربة** » .

لم يقتنع « محمَّد أَسَد » بكلام الأب فيلكس فانصرف عنه وانشغل بشئون رحلته ، وعندما وصلت السفينة إلى ميناء الإسكندرية بَدَأَ يُهَيِّئُ نفسه لينتقل إلى الشوطِ التالي من رحلته إلى فلسطين مباشرة ، فركب القطار المتجه إلى سيناء .

عَبَرَ القطار دلتا مصر في طريقه شرقًا إلى سيناء ، وفي أثناء ذلك يشاهد « محمَّد أَسَد » لأول مرة في حياته صورًا من الشرق مختلفة عن كل ما أَلِفَه في حياته السابقة كلها ، كان يطلُّ من نافذة القطار فيرى عالمًا غريبًا كأنه في حلم : الترع والمصارف والقرى والبلدات الصغيرة الكثيرة ، والمنازل الطينية الرمادية اللون كأنها صناديق كبيرة عليها أكوام القش ، ومحصول القطن الأبيض يُجْمَع

في الحقول ، ومساحات واسعة من قَصَب السُكَّر ونخيل كثيف يحيط بالمساجد ، ومآذن مبثوثة على طول الطريق . وعندما تبدأُ الشمس في الغروب يعود الفلاحون بخطى متثاقلة إلى بيوتهم بعد عناء يوم طويل من العمل . كان الهواء يهبُّ خفيفًا لطيفًا رائقًا تحت سماء عالية زرقاء كأنها البلّور ، وعلى ضفاف الترع يرتفع نبات البوص الذي يتمايل مع هبات الهواء ، ونسوة يَتَّشِحْنَ بالسواد يحملْنَ على رُؤُوسهن جِرَارَ الماء الفخارية ، نسوة رائعات رفيعات القوام أشبه بنباتات البوص طويلة السيقان وهي تتمايل مع هبات النسيم ولكنها ممتلئة بالقوة والنضرة والحيوية ، وكذلك تفعلُ النساءُ وهنَّ يحملن جرارَ الماءِ فوق رءوسهن تتحكم فيها رقاب قوية مَرِنَة ، وقد امتدت أذرعهن على الجانبين في حركات رشيقة لتحافظ على وَضْع الجرار فوق الرءوس ، في مشهد أشبه بالسباحة الطليقة في الهواء .

يقول « محمَّد أَسَد » : « **هذه الحركات المتناغمة في مجموعها للرجال والنساء والنبات تُعْطِي مشهدًا عامًّا يتساوق مع حركة الضوء المتراجع مع الهبوط التدريجي لعتمة المساء على دِلْتا النيل ونحن نقترب من وقت غروب الشمس ، حيث اختفت عن ناظري حركات الفلاحين متسربلة بغبشة المساء ، ولكن تَبْقَى آثارُها في خيالي تتأَوَّدُ كأنها أنشودة دينية هادئة** » .

وَصَلَ « محمَّد أَسَد » إلى بلدة القنطرة على قناة السويس ، وكان ينتظرُ معه في محطة القطار بعض البدو من سيناء ، ولأول مرة يرى قوافل الإبل وهي مُحَمَّلَةٌ بالسِّلَع فيقترب منها ويشعر لأول مرة بالدِّفْءِ المنبعث من أجسامها ، ويشمُّ رائحة الحيوان العجيب فيصفها بأنها كانت رائحة جميلة وثقيلة كالخمر .

ثم يتابع ذكرياته فيقول : « لازلت أتذكر كيف انبثقَ الفجرُ في صفحة السماء بصحراء سيناء ، وكيف بدأت التلالُ الرملية تبرزُ تدريجيًا من قَلْب الظلمة الساجية في صفحة الأفق وتترى أمام ناظري خلال نافذة القطار ، ثم تتخذُ أشكالَها بوضوح تحت أشعة الشمس المشرقة . كانت رحلةُ القطار من القنطرة إلى غزَّة فريدة ، فالراكبُ يشاهدُ على طولِ الطريق صحراء سيناء ، على يمينه ، ومياه البحر الزرقاء على يساره ، والشمس مشرقة في سماء صافية ، حتى إذا وَصَلَ القطار إلى العريش يطالعُك منظر النخيل المنتشر على امتداد البصر ، وهكذا تتعانقُ في مشهد واحد : رمال الصحراء ومياه البحر وزرقة السماء وصفوف النخيل تحت أشعة الشمس الجميلة .. مشهد بالغ الإثارة ! عندما توقف القطار في محطة العريش اندفع نحوه عددٌ من الأطفالِ يحملُون سلالاً بها بيض وتين وخبز يبيعونه للركاب » .

يقول « محمَّد أَسَد » : « كان يجلس أمامي بدوي ففتح نافذة القطار واشترى رغيفًا ، وبينما يهمُّ بالجلوس لمَحَني أجلس أمامه فشطر رغيفَه نصفين وقَدَّمَ إليَّ نصفَه في صَمْت ، فلما لاَحَظَ تردُّدي ودهشتي ابتسم لي ونَطَقَ بعبارة « تَفَضَّل » فلم أَفْهَم معناها ، ولكني شعرت أنها دعوة جادة منه

لأشاركه الطعام ، فتناولت الخبزَ منه وشكرته بالانحناء . كان هناك شخص آخر يراقب المشهد .. رجل يرتدي بذلة وعلى رأسه طربوش ، تطوّع يشرح لي بإنجليزية ركيكة فقال : « أنت مسافرٌ وهو مسافرٌ مثلك فأنتما مشتركان في هدف واحد ، لذلك فهو يريد أن يشاطرك الطعام) .

يُعَقِّبُ « محمَّد أَسَد » على هذه الواقعة فيقول : « **يبدو لي أنَّ حُبّي للشخصية العربية الذي اكتسبته فيما بعد كان متأثرًا بهذا المشهد الافتتاحي ، ففي المبادرةِ العفوية لهذا البدوي معنى عميقٌ يلمسُ شغافَ القلب ، فقد استطاع بسلوكه الفطري أن يجتاز كلَّ حواجز الغربة واللغة ليستشعر الصداقة الإنسانية مع رجل صَحِبَه في رحلة عابرة ، وهو يُعَبِّرُ عن هذا الشعور باقتسام رغيف الخبز فيما بينهما . لقد شعرت حينها بأنني أمام روح طليقة وسلوك مُتَحَرِّر من القيود والأوزار** » .

في محطة « غَزَّة » هَمَّ البدوي بالنزول فَحَيّاه « محمَّد أَسَد » بابتسامة عريضة ، وكان في استقباله بدويّان آخران سَلَّما عليه بترحاب كبير وقَبَّلاه على وجنتيه ، ثم جاء التاجرُ الحَضَري (الأفندي) فأخذ « محمَّد أَسَد » من يده قائلاً : « **أمامنا بعض الوقت لتتجوَّلَ ونشاهد قبل أن يتحرَّكَ القطارُ ، فلننزل هنا لنرى هؤلاء الناس .. إنهم بَدْوٌ من الحجاز** » .

يقول « محمَّد أَسَد » : « **رَحَّبَ البدوُ بنا بلا تحفظاتٍ ، وشعرتُ بينهم براحةٍ نفسية ، فقد كان هناك جوّ من الأُلفة الإنسانية ترفرف على الجميع جعلتني أشعر برغبةٍ قوية في فَهْمِ حياة هؤلاء البدو ، كان الهواء**

يهبُّ علينا جافًّا لطيفًا فيخترق الأجسام ويذيب التشنجات ويمتزج بالأفكار فيبطئ من حركتها ليجعلها أقربَ إلى الركود ، ويسيطر على الجوّ شعور بتوقُّف الزمن ، وأنّ كلّ الأشياء ما يُرى منها وما يُسْمَعُ ويُشَمُّ أو يُستنشقُ لها مذاقٌ مختلفٌ وقِيَمٌ متميزةٌ متفردةٌ بذاتها . وبَدَأ ينبثقُ في عقلي فكرة أنّ هؤلاء الناسِ الذين يسكنون الصحراء لا بدَّ أنهم يُدْرِكون الحياة بطريقة مختلفة عن بقية البشر في أي مكان آخر بهذ العالم ، لا بدَّ أنهم متحرّرون من كثيرٍ من الهواجس المستبدَّة ، ربما متحرّرون أيضًا من كثير من الأحلام التي تُلِحُّ على عقول سكان المناطق الباردة الغنية الذين يحلمون بالأموال والقصور والضياع ، لا بدَّ أنّ هؤلاء الصحراويين لديهم معايير مختلفة للحياة وقيم مختلفة للأشياء عن بقية العالم » .

يقول محمد أسد مؤكدًا على هذا الخاطر : « لعل هذه المناسبة التي وَضَعَتْني أمام بدو الصحراء العربية وجهًا لوجه إرهاص لما سيجري في حياتي بعد ذلك من أحداث جسام ، أعادت تشكيل مصيري ومستقبل حياتي كلها ، إرهاصٌ بعالم كان لا يزال حينذاك غامضَ الهوية بلا حدودِ تميزه ، وإن كنت أدركه على نَحْوٍ ضبابي بأنه عالم دائري ملتفٌ حول نفسه ومفتوح من كلّ جوانبه ، عالم سرعان ما سيصبح هو عالمي الخاص . هذا الإرهاص الذي قد يحدثُ لك مثلُه أشبه بحالة جوّانية من التوقُّع لشيء ما شديد الإبهام ، فإذا وَقَعَ بالفعل وتميَّزت لك حدودُ صورته وتفاصيله بعد ذلك قلت في نفسك أليس هذا ما توقعته من قبل .. ؟ إنه لكذلك !! » .

في فلسطين

نزل « محمَّد أَسَد » ضيفًا على خالِه في مدينة القدس القديمة ، وكان خالُه هذا يعمل طبيبًا نفسيًّا في المستشفى ، فلما عَلِمَ باعتزامه القدوم إلى الشرق الأوسط في مهمة صحفية دعاه للإقامة في داره ، فلما استقرَّ « محمَّد أَسَد » هناك أخذ يتفحَّصُ المكانَ من حوله ، وقد اعتاد أن يطلَّ من نافذة الدار كلَّ يوم يتأملُ ويرصدُ ما يجري خارجها من أحداث في هذا العالم الغريب .

يقول : « كان هناك ساحةٌ بالقرب من دار خالي يملكها شيخٌ عجوز ينادونه باسم « الحاج » ، له في هذه الساحة عدد من الجِمال والحمير تأتي محملةً بالخُضَرِ والفاكهة ثم تُنقَلُ على ظهور الحمير إلى سوق المدينة كل يوم ، وكان الفقر يبدو على سائقي الجمال والحمير من حالِ ملابسهم ، ولكنهم رغم الفقر عندما يجلسون على الأرض لتناول الطعام تَعْجَبُ لهذا القدرِ الكبير من الاحترام الذي يُكِنُّه بعضُهم لبعض ، أمَّا طعامُهم فعادةً ما يتكوَّن من الخبز والجبن وزيت الزيتون ، فإذا انْتَهَوْا من طعامِهم يأتي الحاج فيؤذِّن المؤذِّن وتقام الصلاة ، وسرعان ما يصطفون خلفه في صفوف بالغة الانتظام ، ووجوهُهم نحو مكة ، فإذا رَكَعَ أمامَهم يركعون خلفَه ، ويسجدون إذا سَجَدَ ثم يرفعُ فيرفعون ، يتابعونه في حركاته وسكناته بوقارٍ شديد وإيقاع واحد لا نشاز فيه ، كأنهم جنود يمتثلون بأمر قائدهم ، ولكنهم مستغرقون في العبادة استغراقًا عجيبًا اهتزَّ

له قلبي ، وكانت هذه أول مرة في حياتي أرى فيها صلاة حقيقية ، لأول مرة أشاهد عبادة تستغرق النفس كلّها مع حركات الجسم المنتظمة . دفعني هذا إلى سؤال الحاج ذات يوم فقلت له : « هل تؤمنُ حقًّا بأنَّ اللهَ يطلبُ منك أن تُريه احترامَك له بهذه الانحناءات المتكررة والركوع والسجود في خضوع ؟ ألم يكن من الأفضل أن تجلسَ متأملاً في داخل نفسِك وتصلي له صامتًا بقلبك ؟ لِمَ كلُّ هذه الحركات البدنية ؟ » . ما إن انتهيت من أسئلتي حتى خامرني شعور بأنني ربما أكون قد أهَنْتُ الرجلَ فيما يعتقدُ ويؤمن به ، ولكنه ابتسم ابتسامةً عريضة وأخذ يشرحُ لي الصلاة ، ثم قال : « ألم يخلق اللّه الجسدَ كما خَلَقَ الروح ؟ ألا يجب علينا أن نعبده بجوارحنا كما نعبده بأرواحنا معًا ؟ إننا نقف متجهين بوجوهنا إلى الكعبة وهي بيت اللّه ، ونعلم أن كلَّ المسلمين في العالم يتجهون إليها في صلاتهم ، ونقف لنقرأ القرآن وهو كلام اللّه ، وسواء كانت الصلاة في المسجد أو على جانب الطريق في شارع مشغولٍ فإن الإنسانَ يشعرُ بأنه في حالة سلام مع نفسه » .

ينتقل بنا « محمَّد أَسَد » إلى مشهد آخر يكشفُ لنا فيه انطباعاته الأُولى عن عرب فلسطين في القدس فيقول : « رأيت بدويًّا يزور قلعةَ داود ، ثم حَضَرَ يهودي وانصرف وقارنت بينهما فَالْتَمَعَ في خاطري أن البدويَّ بِسَمْتِهِ ومَسْلَكِهِ أقرب إلى النبي داود من العبرانيين ، فقد كان داودُ من أَصْلٍ عربي وكذلك كان إبراهيم ، ومِن ثَمَّ كان بدويّ اليوم أقرب إلى إبراهيم وداود من كلِّ يهود العالم الذين يزعمون أنهم ينتمون إليهما » .

يصفُ « محمَّد أَسَد » العرب الذين رآهم ينتقلون في مدينة القدس شاعرين بالحرية والثقة ، وسواء كانوا من البدو أو الفلاحين رجالاً أو نساء ، حتى الذين تجاوز عمرهم سنَّ الستين ولكن التجاعيد لم تغزُ وجوههم بعدُ كأنهم لا يزالون في سنِّ الشباب ، كلُّهم بلا استثناء منسجمون مع بيئتهم ومحيطهم ، أمَّا اليهود البولنديون والروس وغيرهم - بخلفيتهم الأوربية - يبدون في ملابسهم وحركاتهم نشاز في جوِّ هذه المدينة العربية العريقة ، وهؤلاء هم الذين يقفون وراء الاضطرابات بين العرب واليهود .

ثم يتساءل « محمَّد أَسَد » : « **ماذا كان اليهودي الأوربي العادي يعرفُ عن العرب في تلك الأيام ؟ لا شيء ! لقد جاء من بلاده يحمل صورًا رومانسية لا صلةَ لها بالواقع وأفكارًا خاطئة ، ولو كان أمينًا مع نفسه لاعترف بأنه لا يعرف عن العرب وبلادهم شيئًا ، لقد كنت واحدًا منهم ولم أكن أعرف عن العرب إلا أنهم مجموعات مبعثرة في الصحراء ، والسبب في هذا الجهل هو أن كلَّ ما قرأته عن فلسطين كتبه الصّهاينة ، لم أكن أتصوَّر أنَّ القدس مليئة بسكانها العرب على هذا النحو الذي شاهدته ، وأن سكان فلسطين من العرب يبلغون خمسة أمثال اليهود على الأقل . لقد كانت بلادًا عربية عروبة لا جدال فيها ، ولم يكن الصهاينة يقيمون أي وزن للعرب ولا يحسبون لهم حسابًا ، ولكني كنت أرى اليهود غرباء في فلسطين رغم كل مزاعمهم التاريخية** » .

هذه شهادة هامَّة جدًّا ؛ لأنها صدرت في زمانها المناسب في وقت لم يكن اليهود قد تَمَكَّنُوا من الأرض وغَيَّرُوا معالمها السُّكَّانية والجغرافية وطردُوا الفلسطينيين من مدنهم وقراهم ، وهي شهادة هامَّة جدًّا ؛ لأن الشاهد هنا كان لا يزال يهوديًّا لم يعتنق الإسلام بعدُ ، ولكنه كان صحفيًّا مخلصًا لمهنته باحثًا عن الحقيقة .

يقول : « **كنت لم أزل واحدًا من اليهود في ذلك الوقت ولكني وجدت نفسي متعاطفًا مع العرب ، وكنت أشعرُ في قرارة نفسي برفض شديد للصهيونية وأفكارها وتوجُّهاتها واعتبرتها غير أخلاقية . لم أستسغْ فكرة أن يأتيَ مهاجرون أجانب مدْعُومُون بقوة دولية عظمى ، ثم ينتزعون العرب من أرضهم التي امتلكوها وعاشوا فيها آلاف السنين ليحلّوا هم محلّهم !** » .

التقى « محمَّد أَسَد » بـ « حاييم وايزمان » زعيم الصهاينة وناقشه بقوة ، فحاول الرجل شَرْحَ أفكاره في الاستيلاء على فلسطين :

ـ سأله « محمَّد أَسَد » : « **ولكن ماذا عن العرب الفلسطينيين ؟** »

ـ فتحوَّل الرجل إليه بوجهه ثم وَضَعَ الإناء الذي كان يحتسي منه الشراب على المائدة أمامه ، ثم رَدَّدَ السؤال ببطء : « ماذا عن العرب ؟! » .

ـ فتابعه « محمَّد أَسَد » بسؤال سريع آخر قال : « **كيف تتصور**

أن تجعلَ من فلسطين دولتك رغم هذه المعارضة العارمة للأغلبية العربية في هذه البلاد ؟ ! » .

ـ هَزَّ الزعيم الصهيوني رأسَه مستخفًّا ثم أجاب بجفاف ظاهر فقال : « **إنني أتوقعُ أنهم لن يكونوا أغلبية في سنوات قليلة !** » .

ـ فسأل « محمَّد أَسَد » مستنكرًا : « **أنت أعلمُ بخططكم التي ترسمونها منذ وقت طويل ، ولكن بصرف النظر عن المقاومة المحتملة من جانب العرب أو عدمها ، ألا يقلقك الجانب الأخلاقي في القضية ؟ ألا تعتقد أنه من الخطأ في جانبك أن تستأصل الشعب الذي اعتاد الحياة في بلاده وأرضه هنا ؟** » .

ـ أجاب حاييم وايزمان وقد رَفَعَ حاجبيه مبديًا دهشته (من غباء محدِّثه اليهودي !) قال : « ولكنها بلادنا ، إننا لا نفعل أكثر من أننا نستردُّ ما كان ملكًا لنا في الماضي وقد حُرِمْنَا منه مئات السنين » .

ـ ردّ « محمَّد أَسَد » بقوّة : « **ولكنكم كنتم بعيدين عن فلسطين ما يَقْرُبُ من ألفي سنة ، ولم يحكم اليهودُ إلا جزءًا من هذه الأرض لفترة من الزمن لا تزيد عن خمسمائة سنة ، ألا تجد أنَّ العرب أولى منكم في المطالبة بأسبانيا وقد حكموها أكثر من سبعمائة سنة ، وأنهم فَقَدُوها فقط منذ خمسمائة سنة لا منذ ألفي عام ؟ !** » .

ـ يقول « محمَّد أَسَد » : « **فَقَدَ دكتور وايزمان صَبْرَه وقال غاضبًا متأفِّفًا : هذا هراء ، لقد كان العرب في إسبانيا مجرد غزاة ،**

لم تكن بلادهم الأصلية ، وكان من الطبيعي أن يطردهم الإسبان منها في النهاية » .

ـ قال « محمَّد أَسَد » : « معذرة ، ولكن هناك حقيقة تاريخية أخرى أَغْفَلْتها وهي أن العبرانيين أيضًا جاءوا إلى فلسطين كغزاة ، وكان يَسكُنُ فلسطين في ذلك الزمن قبائلُ ساميّة وغير سامية من العموريين والفلسطينيين والمعابيين والحيثيين . كانت هذه القبائل كلُّها هنا حتى في عهد إسرائيل وجوده ، وظلوا قاطنين هنا بعد أن طَرَدَ الرومانيون أجدادنا اليهود ، إنهم العرب الذين استقروا في فلسطين وسوريا إلى يومنا هذا ، إنهم كانوا هنا قبلَ أن يأتي العرب المسلمون إليها وكانوا أقلية ، أما العرب القدامى فكانوا هم الأكثرية . أسلم منهم (عبر القرون) بعد الفتح الإسلامي عدد كبير وبقي العرب الآخرون على مسيحيتهم ، فهل تستطيع أن تنكرَ أنَّ العرب الذين يتحدَّثون اللغة العربية إلى اليوم ، مسلمين كانوا أو مسيحيين ، هم أنفسهم أحفاد أولئك العرب الأقدمين الذين عاشوا في فلسطين ، بمعنى أنهم كانوا هنا قبل دخول العبرانيين إلى فلسطين ؟ » .

ـ ابتسم دكتور « وايزمان » بأدب إلى هذا التدفُّق الكلامي الذي لاَحَظَه في عَرْض القضية من الناحية التاريخية ، ثم حَوَّلَ الحديث إلى موضوعات أخرى ..

يصفُ « محمَّد أَسَد » شعورَه بعد هذا اللقاء بأنه كان خيبة أمل !

ثم يتابع التعليق على موقف اليهود في فلسطين في ذلك الوقت فيقول: « **كم كان اليهود عمياناً على رغم مما عُرِفَ عنهم بأن عقولهم نيِّرة ، كيف أنهم لم يُدْركوا ما سيقعُ على رُءُوسهم من كوارث في المستقبل إذا ما اتخذوا العنفَ سبيلهم لإنشاء دولة على أنقاض عرب فلسطين ! إنهم لن يحصدوا إلا المرارة والكراهية . لم أفهمْ كيف أن أُمَّةَ اليهود التي عانت الظلم والاضطهاد عَبْرَ العصور هي الآن على وَشْكِ أن تُوقِعَ الظلم والاضطهاد على شعب بريء !** » .

بدأ الصهاينة ينظرون إلى « محمَّد أَسَد » بريبة واستبعدوه من حسابهم فلم يَعُد مقبولًا من الناحية السياسية ، ولكنه بموقفه العادل اكتسب صداقة العرب على أوسع نطاق ، كما كَسَبَ صداقة بعض اليهود الذين لم يأتوا إلى فلسطين إلا لأغراض دينية ، يذكر من هؤلاءِ مثلًا جيكوب (يعقوب دي هان) ، فهذا الرجل لم يكن صهيونيًا بل كان يعتقدُ أن عودةَ اليهود إلى الأرض المقدسة لا يَصِحُّ أن يحدثَ قبل ظهور « المشياح » الذي سيجمع اليهود من الشتات في آخر الزمان .

أدركَ « محمَّد أَسَد » خلال احتكاكه ومعاشرته للعرب في فلسطين أن هؤلاء الناس « رغم تخلُّفِهم المادي » يتمتعون بنوع من الطمأنينة النفسية والأمن العاطفي الذي تفتقده الحياة الأوربية ، وبَدَأَ يشعر بضرورة السعي لمزيد من فَهْمِ روح الشعوب المسلمة ،

لا لأنه يريد أن يعتنق دينهم فهو لم يكن قد فَكَّرَ في هذا الأمر بعد ، بل إنه لم يكن في تلك المرحلة يعرف عن دينهم إلا النزر اليسير ، وكل ما في الأمر أنه اكتشف عندهم هذا الاتّساق العضوي بين منطق العقل ومشاعر القلب مما تفتقر إليه الحياة الغربية ، وقد استنتج من هذا أن الانفصام بين العقل والمشاعر ربما يكون هو السبب الكامن للمعاناة النفسية عند الغربيين .

يقول : « أصبحت بالتدريج أَعِي ما يعتملُ في نفسي من رغبة طاغية أن أتعمَّقَ جذورَ هذا الأمن العاطفي الذي جَعَلَ حياة العرب مختلفة عن حياة الأوربيين ، كما شعرت في الوقت نفسه أن هذه الرغبة الملحة مرتبطة بشكلٍ خفي غير واضح بمشكلاتي الجوّانية ؛ ولذلك بدأت أبحث عن مقتربات لفَهْم أعمق للشخصية العربية ، للأفكار التي شكَّلت عقولهم وجعلتهم مختلفين روحيًا عنا تمامًا . أخذت أقرأُ مكثّفًا عن تاريخهم ودينهم وثقافتهم ، كنت أريد أن أعرف ما الذي يُحَرِّكُ قلوبهم ويملأُ عقولهم ويمنحهم توجّهاتهم الحياتية ، وكان لديّ دافع شخصي مرتبط بهذا البحث وهو أن أكتشفَ بعض القوى الخفية التي تُحَرِّكُني أنا نفسي وتملأ كياني بوعدٍ غامض أن طريقي إلى الهداية سوف يأتيني خلال هذا البحث » .

الأصوات ودلالاتها النفسية

لـ « محمَّد أَسَد » تحليل بديعٌ في مقارنة الأصوات ودلالاتها

النفسية عند الشعوب ، فهو قد عاشَ وارتحلَ في الصحراء العربية مع البدو سنوات ، وأَلِفَ حياة القوافل المرتحلة وامتزج في ذاكرته وَقْعُ الإبل في مشيها مع الحداءِ الهادئ الجميل ، ورأى في كلِّ هذا منظومة نفسيةً تُعَبِّرُ أصدق تعبير عن المزاج الروحي للعرب .

ثم ينتقلُ بنا إلى تحليل الصوت الموسيقي عند الغربيين فيكشف لنا أنه يحملُ في بنيته « بصمة فاوست » ، ولا أقول : « روحه » ؛ لأن الأسطورة تقول : « إن فاوست باعَ روحَه لإبليس مقابل بعض المكاسب المادية » .

وفي هذا يقول « محمَّد أَسَد » : « **هذه البصمة الشيطانية هي التي جعلت الإنسان الغربي يحلم كثيرًا ، ويطمع كثيرًا ، ويكافح كثيرًا ليغزو ويهزم ، ولكنه أيضًا يفتقدُ كثيرًا ، ويعاني بسبب الحرمان الروحي معاناة فوقَ طاقته . عالم الإنسان الغربي تاريخ دائم الصيرورة والتحوّل ، حادث ذاهب دائمًا إلى الماضي فليس فيه شيء اسمه الحاضر أو الآن ، ومِن ثَمَّ يفتقد الشعور بالاستقرار .. الاستقرار في مكانه ولحظته الآنية ، وهو لا يستقر ؛ لأنه يشعر بأنَّ الزمن عدوّ له ، ينظر إليه بشكٍّ ، لم يخطر بباله أبدًا أن (اللحظة الآنية) تحمل في طياتها صورة الأبدية ، لذلك يشعر بالضياع بعكس الصحراوي العربي في موقفه من المكان والزمن والوقت ، هذا البدوي البسيط في مظهره افتقد التقدُّم المادي ـ بلا شكٍّ ـ ولكنه استطاع أن يحافظ على روحه من الضياع** » .

* في موضع آخر - وأثناء إقامته في القاهرة - ينصت بإمعان إلى صوت المؤذِّن في المسجد القريب من مَسْكنِه ويلاحظ التشابه - إلى حدِّ التطابق - بين صوت الأذان في القاهرة وصوته في القدس وفي أماكن أخرى من بلاد العرب، ويشعر في هذا النداء بوجود وحدة لا يمكنُ تجاهلها، فرغم اختلاف اللهجات اللغوية إلا أن الأذان وطريقة أدائه الصوتية تُعَبِّرُ عن وحدة عجيبة بين هذه الشعوب المسلمة لا مِرَاء فيها .

في القاهرة

عَاصَرَ « محمَّد أَسَد » - في العقود الثلاثة الأولى من القرن العشرين - زحف الغرب على بلاد المسلمين في هجمة شرسة على ثقافتهم وقِيَمِهم، كما شَهِدَ مقاومةَ المسلمين للتحرُّر من الاستعمار الغربي في شتَّى أرجاء البلاد العربية، وعرف - من موقعِه كصحفي غربي - ردودَ الأفعال الغربية على هذه المقاومة، إذ اختزلوها إلى نوع من الخوفِ المرضيِّ بعبارة نمطية شائعة « رُهاب الأجانب » . وعَزَا هذه الرؤية القاصرة للحقائق إلى أنَّ الدارسين والمراقبين الغربيين يتغذَّون في رُؤْيتهم وأحكامهم على أفكار خاطئة لا علاقة لها بالحقيقة والواقع .

في تلك الفترة تأجَّج الصراع المصري الإنجليزي، واشتعلت

حركة التحرير الوطني ونَشْأ حزب « الوفد » . وكصحفي متخصِّص في شئون الشرق الأوسط كان عليه أن يتوجَّه إلى مصر لرصد الأحداث والكتابة عن التطوُّرات السياسية المتسارعة فيها .

في هذه المرة لم تقتصر زيارته لمصر على مجرد المرور العابر بالقطار من الإسكندرية إلى سيناء ليسجل انطباعات سريعة عن مصر من خلال نافذة القطار كما رأينا في مرة سابقة ، ولكنها كانت إقامة مطوَّلة ، فيها رَصْدٌ وتقصٍّ ومتابعةٌ للأحداث والوقائع ، وتحليل للحقائق والإفادة من وجوده في قَلْبِ العالم الإسلامي وقلعته الأزهرية لينهلَ من الثقافة الإسلامية ويتعرَّفَ ـ عن قرب ـ على هذا الدين ولغته ورجاله المشهورين .

صُدِمَ « محمَّد أَسَد » في انطباعه الأول عن القاهرة ـ في ذلك الوقت ـ فقد كان عليه أن يمرَّ كل يوم في طريقه من مسكنه إلى مقرِّ عمله بحيِّ المتعة والليالي الساهرة ، حيث الضجيج والموسيقى والغناء ، وأُناس من كلِّ الأجناس والجنسيَّات المختلفة يجوسون بشوارع الحي ليل نهار ، حيث ينتشرُ مع طُلاَّبِ الفُرْجة والمتعة المتسوّلون والدراويش حملة المباخر ، وحيث تتردَّد ضحكاتُ النساءِ في كلِّ رُكْن ، وكأنَّ هذا الجزء من القاهرة مقطوع الصلة بكل ما يجري فيها من أحداث سياسية وتطورات مصيرية .

يصفُ « محمَّد أَسَد » كلَّ هذا بنظرة رجل محايد لا سائح ولا طالب متعة ، فهي شهادة صِدْقٍ ورَصْدٌ لواقع لم يشهده جيلنا ولا أجيال أخرى بعدنا .. وهي شهادة تحتاج منا إلى تأمل ودراسة لمصر ذات الأوجه المتعددة والتاريخ الطويل .

يرصد « محمَّد أَسَد » في شهادته على العصر أحوال السَّواد الأعظم من سُكَّان القاهرة وزوَّارها وهم يسيرون في شوارعها وقد بَدَت البهجة والبِشْر على وجوههم ، يتمايلون قليلاً في مشيتهم وقد ارتدوا جلابيب طويلة بكل ألوان الطيف ، يضحكون ويطلقون النكات بقلب فارغ وعَقْلٍ متحرِّر من الهموم ، حتى ليظن الإنسان أن كلَّ ما يعانونه من فَقْرٍ طاحن واستياء واضطرابات سياسية لا يمكنُ أن يكون مأخوذًا مأخذ الجدّ !

ثم يتساءل كيف يمكن أن يضحكَ هؤلاء المصريون وهم في هذا البلاء العظيم ؟! ويزيد من استغرابه أنَّه بين حين وآخر يتفجر غضب هائج وعُنْفٌ شديد وصدام مع سلطات الاحتلال الإنجليزي ، ولكن سرعان ما يتحوَّل المشهد إلى هدوء شامل واسترخاء كامل وكأنما لا شيء قد حَدَثَ !

ويُعلِّقُ « محمَّد أَسَد » على هذه التقلبات المفاجئة في المزاج المصري والعربي بصفة عامة فيقول : « **ربما بسبب هذا نَظَرَ معظم**

الأوربيين إلى العرب باستخفاف واعتبروهم بدائيين وسطحيين ينتفضون بانفعال شديد لأتفهِ الأسباب ، ثم يعودون إلى سيرتهم الأولى من الاستسلام العام والهدوء » .

ولكنه يرى أن الاستخفاف الغربي والازدراء يرجع إلى عَدَم تقديرٍ للعواطف العربية العميقة التي تنفجر من حين لآخر كالبراكين لأسباب لا يَفْهَمُها الغربيون . حيث يقولُ : « **لقد شعرت أنَّ العرب متحرّرون من ذلك النوع من القلق النفسي والتوتر والضغط الجوّاني الذي يشيع في المجتمعات الغربية ، فكيف نسمح لأنفسنا أن نُطَبِّقَ على العرب معاييرنا الخاصة وهي نتاج ظروف اقتصادية واجتماعية وفكرية مختلفة تمام الاختلاف عن ظروف العرب وفكرهم عن الحياة ؟! إنَّ هؤلاء العرب تتدفَّق انفعالاتهم الطبيعية بلا تصادم يعوق تدفُّقَها ، ولكني أخشى أن يفقد العرب تدريجيًا ـ تحت مطارق التغريب المنهجي طويل النفس ـ تلك العفوية والتلقائية في علاقاتهم مع الواقع المتغير ، وأن يكتسبوا مع مرور الزمن المشكلات المعقدة التي تسيطر على المشهد الروحي والاجتماعي المتدهور في الغرب** » .

أليس ما خشي منه « محمَّد أَسَد » قد وَقَعَ الآن بالفعل ؟!

يثير « محمَّد أَسَد » ملاحظة هامَّة لا تزال تنطبق على الأوضاع الراهنة في بلاد العرب حيث يقول : « **إن التدخُّل الغربي يسعى إلى توطين التفكُّك الداخلي والفرقة بين العرب ، بحيث يستحيل على الشعوب العربية أن تستفيقَ وتعود إلى رُشدِها** » .

ثم يتابع حديثه عن الأوضاع في مصر فيقول : « **عندما جئتُ إلى مصر كانت هناك ثورة ضد الاحتلال البريطاني ، وكانت القنابل تُلقى على الأماكن العامة التي يرتادها الجنود الإنجليز فتستجيب لها سلطات الاحتلال بمزيد من القَمْع والأحكام العرفية والاعتقالات السياسية ، ونفي القادة والزعماء السياسيين خارج البلاد ، وتعطيل الصحف ، ولكن هذه التدابير القمعية كلها لم تستطع خَنْقَ الشعب أو منعه من التعبير عن رغبته في الحرية ، لقد اكتشف الشعب ـ خلال انتفاضته ـ جذور قوته الحقيقية الكامنة** » .

كذلك يُسجل « محمَّد أَسد » ملاحظة أخرى ذات دلالة بالغة تمتد حتى اللحظة الراهنة ، فقد رأى أن هناك فئة قليلة من الأغنياء والباشوات ارتبطت مصالحهم بالمستعمر المحتلّ ، فئة تحيا مقطوعة الصلة عن حركة الشعب في نضاله وآماله في التحرُّر من الأجنبي المحتلّ ، كانوا يتودَّدون للحكم الإنجليزي ويساعدونه في قَمْعِ الثورة الشعبية .

ويضيف إلى ذلك ملاحظة أخرى على جانب كبير من الأهمية ، إذ تكشف لنا سرَّ تواصل النضال الشعبي واستمرار الحركة الوطنية والمقاومة ، حيث يقول : « **كنتُ تسمعُ صيحات باعة الصحف الجائلين وهم يُعْلِنون عن مانشتّات الصحف : « اقرأ .. القبض على جميع زعماءِ الوفد بأمر الحاكم العسكري » ولكنَّك تُفاجأ**

في اليوم التالي بظهور زعماء جُدُد يتصدَّون لقيادة الحركة الوطنية ، فقد كان الظمأ إلى الحرية يشتدُّ بين الجماهير ، وتنمو لديهم الكراهية للمحتلِّ المستبدِّ وتزداد يومًا بعد يوم » .

ملاحظات بالغة الأهمية التقطها « محمَّد أَسَد » في مولدها وبداية تجلياتها ، وأحسب أنَّ الشواهد اليوم ما تزال قائمة على صحتها ، ربما تكون الوجوه قد تَغَيَّرَتْ سواء في ذلك الوجوه الأجنبية أو الوجوه المحليَّة العميلة ، ولكن تبقى الحقائق راسخة على الأرض ، فهناك سَعْيٌ دائمٌ لتمزيق وحدة العرب والمسلمين وترسيخ فُرْقَتِهِم ، وتجفيف منابع قواهم النضالية ، وتغييب وَعْي الجماهير وإلهائهم حتى يفقدوا الرشد . ولا تزال سياسات القمع والتعذيب والإقصاء والاعتقالات والمحاكمات السياسية أمام المحاكم العسكرية الجارية ، وإذا كانت هذه السياسات تمارسها اليوم قوى محلية فإنها تشتركُ مع القوى الأجنبية في مشاعر الكراهية والازدراء لشعوبهم !

في دمشق وعواصم إسلامية أخرى

دَخَلَ « محمَّد أَسَد » سوريا في زمن الاحتلال الفرنسي بطريقة غير عادية ، دعني أقول : دَخَلَ متسللًا رغم الحراسة الفرنسية على الحدود ، فهو كصحفي شديد الرغبة في الاستطلاع والمغامرة لم

يُعْدَمْ وسيلة للتسلُّل ، ولكنه عاد إليها مرة ثانية واستقرَّ في دمشق زمنًا أطول أتاح له فرصة أكبر للبحث والدراسة ، فماذا كانت أولويات اهتمامه ؟

إنها دائمًا العلاقات الإنسانية والسلوك البشري وما ينطوي عليه من مُحَفِّزات ودوافع روحية ، وليس هناك أعمق في الدلالة على طبيعة العلاقات السائدة في مجتمع ما من السوق ، لذلك كان يُرَكِّزُ مراقبته للناس وهم يتعاملون في سوق دمشق ، وقد أدهشه ألا يجد أثرًا للمنافسة - التي هي أبرز عامل في أي سوق - على العلاقات الاجتماعية بين الناس ، بل رأى على خلاف ذلك تمامًا : أنَّ هذه العلاقات تعكس نوعًا ما من الطمأنينة النفسية والسلام الجوّاني والثقة المتبادلة ، وهي نَفْسُ المشاعر التي لاحظها من قَبْلُ في سوقِ القدس وفي أسواق عربية أخرى . أدهشته تلك الطريقة التلقائية والبساطة التي يتصرَّفُ بها الناسُ في تعاملهم بعضهم مع بعض ، وذلك الاحترام الدافئ الذي يَتجلَّى عند لقائهم وعند تفرُّقِهم .

أدهشته تلك الطريقة التي يمشي بها رجلان معًا متشابكا اليدين كأنهما طفلان صديقان ، والطريقة التي يتعامل بها أصحاب المحال التجارية مع جيرانهم من التجّار في الدكاكين الصغيرة

وكيف يأتمن بعضهم بعضًا بلا تحفّظات ، وكيف يستقبلون الضيوفَ الأجانب ويُعَبِّرون لهم عن كَرَمِهم وترْحَابهم .

ثم يُعلِّقُ على ذلك فيقول : « **أن يكون العربيُّ مضيافًا كريمًا بهذا الشكل العفوي فإنما يرجع ذلك إلى ما يتمتع به من حرية جُوّانية ، فهو متحرّر من الشكّ في ذاته ومن ثَمَّ يستطيع أن يفتح حياته لإنسان آخر بسهولة . إنه ليس في حاجة إلى جدران الشكِّ واحتياطات الأمن التي يقيمها الإنسانُ الغربي بين نفسه وبين جيرانه** » .

يخصُّ « محمَّد أَسَد » يوم الجمعة في دمشق بوصف مُفَصَّل يصوِّرُ فيه الحياة والحركة ، والمسجد الذي يحتلُّ مكانه في قَلْب حياة المدينة باعتباره محور نشاطها . فليس المسجد الإسلامي نائيًا ولا منعزلاً ولا ساكنًا سكون الموت طول الأسبوع كما هو الحال في الكنائس الغربية . لم يكن « محمَّد أَسَد » في ذلك الوقت مسلمًا ، ولكن سُمِحَ له بزيارة المسجد ومشاهدة المصلِّين فيه ، فقال عن ذلك : « **إن صلاة المسلمين ليست مقطوعة الصلة بعملهم اليومي وإنما هي جزء منه ، فكل واحد منهمك في عمله حتى إذا أَذَّنَ المؤذِّنُ اتَّجَهَ الجميعُ لأداء الصلاة في أقرب مسجد ، فالصلاة الإسلامية لا تدفع المصلين إلى نسيان الحياة ولكن تذكرهم بها وإنما بطريقة أفضل ، إنها تُذَكِّرُهم بالحضور الإلهي في نَفْس المسلم على مَدَى اليوم كلِّه ، تذكّرهم بالله واهب الرزق واهب الحياة** » .

قال « محمَّد أَسَد » لصاحبه الدمشقي المسلم بعد زيارة للمسجد الأموي : « **كم هو غريبٌ ورائع أن يشعرَ الناسُ أنَّ اللّه قريب جدًا منهم ، لكم أودُّ أن أستمتعَ بهذا الشعور المذهل !** » فرد عليه صاحبه : « **يا أخي أليس اللّهُ هو القائلُ في كتابه العزيز : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾** [البقرة : ١٨٦] . **إنَّ المسلم يعرف من قراءته لكلام اللّه في قرآنه أن اللّه أقرب إليه من حبل الوريد** » .

انغمس « محمَّد أَسَد » في قراءة كثير من الكتب العربية عن الإسلام أثناء إقامته في دمشق ، فلم يجد في هذا الدين كلامًا عن الخلاص المسيحي أو الخطيئة الأولى .

القرآن

لم تكن لغة « محمَّد أَسَد » العربية آنذاك قوية بالقدر الكافي لكي يَقْرَأ ويَفْهَمَ القرآن في أصله العربي ، فلجأ إلى ترجمة معانيه في نسختين وجدهما بمكتبات دمشق إحداهما ألمانية والأخرى فرنسية ، واستعان في شرح المعاني القرآنية ببعض المستشرقين وبعض أصدقائه العرب .. وما كان أكثرهم ! فقد كان لشخصية الرجل جاذبية ، وكان تَفَتُّحُه العقليّ ورغبته المخلصة في المعرفة من العوامل التي شدّت إليه انتباه الجميع .

وأُلَخّص فيما يلي بعض انطباعاته الأولية عما فَهِمَه من القرآن

في هذه المرحلة :

١ـ أن الإسلام دين مختلف في طبيعته عن الدين المجرد كما أَلِفَه الغربيون ، فهو طريقة حياة وبرنامج للسلوك الشخصي والاجتماعي ، وليس مجرد علاقة روحية فردية باللّه .

٢ـ أنه لا ضرورة للخلاص ، فالخلاص المسيحيّ يفترض أنَّ الخطيئة الأولى لآدم تنسحب على جميع البشر ، بمعنى أنهم جميعًا مذنبون بالتبعية والولادة ، ومن أجل هذا جاء المسيح مضحّيًا بنفسه لتخليص بني آدم من هذه الخطيئة الأزلية ... إلى آخر هذه القصة !

٣ـ أن الإنسان إذن متحرّر من الخطيئة الأصلية ، وهو لا يرث بالتبعية ذنوب آبائه وأجداده وليس مسئولاً عنها . نعم الإنسان يُخْطِئ لكنه إذا تاب إلى اللّه توبة نصوحًا يتخلَّص بذلك من ذنوبه وآثامه الشخصية .

٤ـ أنه لا توجد حواجز أمام المسلم لكي يرتقي في سُلَّم التطور الروحي والصفاء القلبي ، فليس هناك واسطة بين العبد وربه .

٥ـ أنه لا توجد ازدواجية بين جِسْمٍ وروحٍ وإنما يتكامل في الإنسان ما هو جسمي وما هو روحي في كيان واحد .

يقول أيضًا : « لقد انزعجت في أول الأمر لأنني لاحظت اهتمام القرآن بأشياء ليست روحية فقط ، بل بأشياء بَدَت لي تافهة في الحياة المادية ، ولكني أدركت فيما بعدُ أنه ما دام الإسلامُ معنيًا بالإنسان كلّه كوحدة متكاملة من الروح والجسد معًا ، فليس في حياة المسلم شيء يمكن اعتباره تافهًا كما نظنُّ نحن الغربيون ، وبعد كلّ شيء فالقرآن يؤكِّدُ دائمًا أن الحياة الدنيا كلها ليست سوى مرحلة فانية ، تليها مرحلة أخرى روحية خالدة بعد الموت الجسدي ، وأنَّ الرخاء والمتاع في الحياة الدنيا ليس شرًّا في حدِّ ذاته ، ولكنه أيضًا ليس نهاية المطاف بالنسبة للإنسان ، فهناك بَعْثٌ بعد الموت وهناك حساب . ليس القرآن معنيًا فقط بعلاقة الإنسان بالله وإنما بكلِّ علاقاته الاجتماعية مع الآخرين ، ليس معنيًّا فقط بالكمال الأخلاقي للفرد ، لكن أيضًا بخلق الظروف الاجتماعية المناسبة للتطور الروحي للجميع حتى يحيا الإنسان حياة متكاملة وصحِّيَّة » .

ولعلَّ هذا المعنى هو ما حاول المفكِّرُ الإسلامي العظيم « علي عزت بيجوفيتش » أن يؤكِّدَه ويرسِّخَه في كتابه « الإسلام بين الشرق والغرب » حين قال : « إن المسلم لا يمكن أن يحيا ويزدهر وحده في عُزْلة ، وأن على المسلم ـ لكي يحيا حياة إسلامية صحيحة ـ أن يخلقَ مجتمعه بنفسه وأن يكدحَ في سبيل ذلك بكل ما أُوتي من عقل وجهد » .

ويُتابع « محمَّد أسَد » انطباعاته الأولى عن القرآن فيقول : « **بَدَا لي أن مقتربَ الإسلام للمشكلات الروحية أعمقُ بكثير من مقتربِ العهد القديم (التوراة)** ، وليس فيه ذلك التقوقع على أمة بعينها وإنما هو لكل الأمم والشعوب . وبالتأكيد فإن المقتربات القرآنية لقضايا الجسد ليست كالعهد القديم إنما هي مقتربات إيجابية بالغة القوة ، فكل من الروح والجسد له اعتباره المنفرد الواضح ولكنهما ممتزجان كتوأمين أو وجهين لعملة واحدة هي الحياة التي وهبها اللّه للإنسان » .

ثم يسأل نفسه : « **أليست لذلك علاقة بهذا الأمن وتلك الطمأنينة النفسية التي لاحظتها في حياة العرب بكل مكان ؟!** » .

الجزيرة العربية

لا يفتأ « محمَّد أسَد » يُعَبِّرُ عن عِشْقِهِ للحياة في الجزيرة العربية في مواضع كثيرة من كتاباته ، ويُؤَكِّد أنَّ بداية حُبِّه هذا كانت في صحراء سيناء عندما التقى لأول مرة ـ قرب محطة القطار ـ في « رَفَح » قافلة مرتحلة من الحجاز ، فتعلَّق قَلْبُه بهم .

يقول : « **لم يخب أملي فيهم ، بل أَكَّدَت السنوات اللاحقة ما توقعتُ عنهم في أول الطريق** »

فعندما التقى في جدّة السفير الألماني « فان در ميولن » الذي يصفُه بأنه مسيحي قوي الإيمان بدينه ، اعترف له بأنه يحبُّ

الجزيرة العربية ، ويقول إنه لن ينساها أبدًا ، ويعتقد أنَّ أي إنسان قُدِّر له أن يعيشَ فترة من الزمن بين العرب لن يستطيع أن ينزع حُبَّهم من قلبِه ، وأنه عندما تنتهي بعثته ويرحل فسيحمل في كيانه المناخ الإنساني لهذه البلاد ، وسيتطلع إليها بشوق وحنين حتى ولو كانت بلاده الأم أجمل بلاد العالم !

ورغم حبِّ « محمَّد أَسَد » للعرب وللحياة العربية إلا أن هذا الحبّ لم يغلق عنده حاسة النقد ، فقد تحدَّث عن الوهَّابيين وعن الوهابية كمذهب في مجال التطبيق العملي وأبرز تاريخ الوهَّابية ومحاسنها ولكنه لم يغمض العين عن سَيِّئَاتها في الممارسة ، ومن أهم مآخذه عليها :

أولًا : أنها حصرت كلَّ الجهد الديني - تقريبًا - على مراعاة الشعائرِ متغافلة عن المضامين الروحية الكامنة في العبادات .

ثانيًا : أنها صاغت شخصية أتباعها بأسلوب رَفَعَ درجة الحماس الديني والالتصاق المذهبي إلى درجة ألغت الآخرين المخالفين لهم في المذهب .

يقول « محمَّد أَسَد » : « **قبل ظهور محمد بن عبد الوهَّاب كانت الجزيرة العربية قد نَأَتْ عن الإسلام حتى كادت تعاليمه الصحيحة تندثر في عقول الناس وقلوبهم ، فلما اعتنقوا فِكْرَ ابن عبد الوهَّاب ظنَّ أهلُها أنهم**

وحدهم الذين يحتكرون الحقيقة الدينية دون سائر المسلمين ، ولم يعتبروا أنفسهم رُوَّادًا فحسب ، بل أصحاب الدين الحقيقي الوحيدين !! » .

ثم يلقي بملاحظة أخرى جديرة بالتأمُّل إذ يقول : « **إنَّ المعنى الروحي للوهابية باعتباره الجهاد في سبيل تجديد المجتمع المسلم ، بَدَأ يتراجع في اللحظة التي وَصَلَت فيه الوهَّابيَّة إلى السلطة السياسية والاجتماعية بإقامة الدولة السعودية في نهاية القرن الثامن عشر ، وهنا تجمَّدَتْ دعوة ابن عبد الوهَّاب ؛ لأن السلطة لا يمكن أن تخدم الجانب الروحي للدعوة (حسب رؤيته) ، فكلُّ الفضائل تُدَمِّرُ نفسَها فور توقُّفها عن أن تكون توْقًا وتطلُّعًا وتواضعًا »** .

ويتفق هذا الرأي كثيرًا مع فِكْرِ « علي عزت بيجوفيتش » الذي يرى أن الدعوة تظلُّ حيةً نابضة بالقوة ما دامت ثورة تبقى في المجتمع وتُغَيِّره ، فإذا استقرت في نظام سلطوي ، وتحوَّل الدينُ الثائرُ إلى مؤسسة تدافع عن كيانها واستمرار وجودها ، تجمَّدَت الدعوة وفَقَدَت رَوْنَقَهَا وجاذبيتها .

صداقة ملكية

أُعْجِبَ الملك عبد العزيز بن سعود بشخصية الشاب « محمَّد أَسَد » لجسارته ورجاحة عَقْلِه وشَغَفِه بحياة البادية وحُبِّه للعرب ، فقرَّبه من مجلسه واستخلصه لنفسه ومَنَحَه ثقته بل استأمنه على أسراره واتخذه مستشارًا سياسيًّا .

لم يكن الملك يسمح للأجانب - في ذلك الوقت - بدخول الرياض ، ولكنه سَمَحَ لـ « محمَّد أَسَد » بدخولها ، وسَمَحَ له بمخالطة البدو في أعماق الصحراء العربية .، وأَمَّنَه على حياته إذ مَنَحَه خطابًا رسميًّا مختومًا بخاتم الملك يطلب فيه من أبناء شعبه في كل أنحاء المملكة تقديم العون والمساعدة لصديق الملك « محمَّد أَسَد » .

وقد بادله « محمَّد أَسَد » إعجابًا بإعجاب ، وحُبًّا بحبٍّ ، وأخلص له النصيحة ، بل غامر بحياته ليستطلع للملك أخبارًا وحقائق تتعلق بأمن مملكته وما يُدَبِّرُه أعداؤُه البريطانيون من مؤامرات ، ومدى ضلوعهم في تمويل وتسليح القبائل المتمرِّدة ضده .

يصفُ « محمَّد أَسَد » هذه العلاقة الحميمة بتفصيل كبير في كتابه « الطريق إلى مكة » ، ولكنه مع هذه العلاقة الحميمة لم يُخْفِ عن الملك اختلافَه معه في الرأي ، ولم يغالِ في مدحه ، بل وَصَفَه بخصاله ما يُحمدُ منها وما يُنكرُ .

ولم يكن الملك يُخْفِي عن صديقه تَعَلُّقَه الشديد بشخصيتين أَثَّرتا في حياته تأثيرًا كبيرًا وهما : أبوه عبد الرحمن وأختٌ له كبرى كان يكنُّ لها إعزازًا خاصًّا ، ويتحدَّثُ عن حِكْمَتِها وحُبِّها لشخصه منذ كان صبيًّا صغيرًا ، كما كان يتحدَّث عن صراعه الطويل مع

خَصْمِه اللدود محمد بن راشد الذي استولى على الحكم ، وكيف استطاع عبد العزيز بن سعود أن يتغلبَ عليه ويستعيدَ مُلْكَه .

يقول « محمَّد أَسَد » : « **كان الملك يتحدَّث معي (في جلساته الخاصة) بانطلاق ملحوظ ، ولكن كانت لكلماته أبعاد مختلفة يمكن فَهْمُها على أوجه مختلفة ، إنه يتحدَّث عن نفسه بحرية كبيرة ويحكي خبراته الخاصة ، ولكن مظهره البسيط كان يخفي قلبًا مليئًا بالأسرار كالبحر .. قلبًا حافلاً بالأمزجة والتناقضات الجوانية** » .

ومما أخذه « محمَّد أَسَد » على صديقه الملك وانتقده فيه أمامه صراحة : إهماله تعليم أبنائه وإهماله في تعليم « الإخوان » وهو الاسم الذي كان يطلقُ على أنصارِه الذين حاربوا معه ببسالة لتوطيد سيطرته على القبائل ، ولكنَّ أعداءَه استغلُّوا بعد ذلك جهلَهم فانقلبوا عليه وحاربوا ضده . كذلك اقترح « محمَّد أَسَد » على الملك مشروعًا لزراعة وادي « بيشان » ليمد المملكةَ كلَّها بالقمح لكي لا تبقى عالة على غيرها في الإمداد بالغذاء الرئيسي ، فلما سأله الملك : « **كم يأخذ هذا المشروع من الوقت ؟** »

أجاب « محمَّد أَسَد » : « **عشر سنوات** » .

فرفضه الملك بحجة أنه مثل قومه العرب يريدون نتائج سريعة لأي مشروع ولا يتحملون الانتظار كل هذه السنوات .

عودة إلى القاهرة

كانت بداية طريق « محمَّد أَسَد » إلى الإسلام في جزيرة سيناء كما سَبَقَ أن ذَكَرْنا من قبلُ ، وفي هذه المرحلة الوسطى من تطوره الروحي والفكري يعود مرة أخرى إلى القاهرة .

كانت عودته في قطار عائد من بورسعيد متجهًا نحو القاهرة ، وكان يركب عربة في الدرجة الأولى من القطار وبصحبته في نفس (الكابينة) رجل أعمال يوناني الأصل وعمدة مصري ، حَسَنُ الثياب والهندام .

يقول : **« جلسنا نتحدَّث وكان العمدة مثقَّفًا ومتحدِّثًا لبقًا ومجادلاً شديدَ المراس ، لم يكن اليوناني مقتنعًا بما في الشريعة الإسلامية من عَدْل فقال منتقدًا : « هل من العدل أن تسمحوا للرجل المسلم بالزواج من مسيحية أو يهودية ولا تسمحوا للمرأة المسلمة أن تتزوج مسيحيًا أو يهوديًا ؟ ! » وتصدَّى العمدةُ المصري للإجابة عن السؤال فقال : « نحن المسلمون حقًّا لا نؤمنُ بأن عيسى ابن اللَّه ولكننا نُؤْمنُ به نبيًا من أنبياء اللَّه ورسله العظام ، وكذلك نُؤْمنُ بموسى نبيًا ، فإذا تَزَوَّجَ مسلمٌ بمسيحية فسوف تكون واثقةً ومطمئنةً أنه لا زوجها ولا أحدٌ ممن يحيطون بها من المسلمين سوف يُهينُ أو يُقَلِّلُ من شأن مقدساتها ، فالمسيح محترمٌ ومُقَدَّرٌ في أعين المسلمين ، ولكن إذا تزوجت المسلمة من مسيحي أو يهودي فلن تكون آمنة ولا هانئة في زواجها ؛ لأنَّ أهل**

زوجها لا يعتقدون في نبوّة « محمد ﷺ » ، ولن تَسْلَمَ هي والأطفالُ من السخرية والاستهزاء ، وربما الاضطهاد أيضًا » خرسَ اليونانيُّ فلم ينطق بشيءٍ ، لكنَّه هَزَّ كتفيه امتعاضًا واستخفافًا ! » .

يقول « محمَّد أَسَد » : « **أعجبتني إجابةُ الرجلِ فهو على بساطة ثقافته ومعارفه قَدَّمَ إجابة منطقية مقنعة ، شعرت إزاءَها بأن بابًا من أبواب الإسلام قد انفتح أمامي ، فَتَحَ الباب الأول لي البدويُّ المقدسيّ الذي شرحَ لي الصلاة الإسلامية وربط فيها بين حركات الجسم وخشوع الروح** » .

في الأزهر مع الشيخ مصطفى المراغي

تَصَادفَ وصول « محمَّد أَسَد » إلى القاهرة بداية شهر رمضان ومدفع الإفطار في القاهرة ، وكانت أذناه وباقي جوارحه متفتحة لاستقبال المزيد من المعرفة عن هذا الدين والتأمُّل العميق فيه ، وربما كان حديث القطار أحد الحوافز التي حَفَّزَتْه للسعي في طلب المزيد من المعرفة بالإسلام عند أصحابها الثقاة ، وكانت له قدرة على اكتساب صداقات الناس واختيار أكثرهم حِكْمةً ليتعلم منه ، ومن هؤلاء وأبرزهم الشيخ مصطفى المراغي الذي يخصُّه بالثناء والإعجاب ، بذكائه وحكمته وفيض علمه . يقول عنه : « **كان يبدو في منتصف الأربعينات من عمره يتمتع بروح الفكاهة والمداعبة ، متميز بغزارة علمه ووفرة نشاطه ، طاقته العقلية والبدنية في أوجها ، إنه تلميذُ الإمام الشيخ محمد عبده ذلك المصلح الديني العظيم** » .

يحكي « محمَّد أَسَد » عن الشيخ المراغي رأيه القائل بأنه من الخطأ الحكم على الإسلام من واقع المنتسبين إليه اليوم ، كما أنه من الخطأ الحكم على المسيحية من واقع المنتسبين إلى المسيح اليوم في أوربا ، فقد جاءَ المسيح بدين المحبة والإخاء الإنساني .. ولكن المسيحيين الأوربيين يُمَثِّلُون اليوم إنكارًا كاملًا لرسالة المسيح في الحبِّ ».

ويصف حالَ الأزهر في ذلك الوقت فيقول : « **إن الشيوخ يقرءون ويحفظون ويكرِّرون ، وكذلك يفعل تلاميذهم فيتابعونهم بالقراءة والتكرار والحفظ ، ولكن لا اجتهاد ولا تجديد !** » .

ومهما يكن الأمر فقد أتيحت لمحمَّد أَسَد الفرصة من أوسع أبوابها لتعلّم اللغة العربية وإتقانها على يد معلمين أكفاء من الأزهر ، وفي ذلك يقول : « **عندما أتممت تعلّم اللغة العربية شعرت أنني أمتلك مفتاحًا إلى العقل المسلم فلم يَعُد العالم الإسلامي غريبًا عني ، وقد أدركت أنه يستحيل على أي أوربي مهما أوتي من قدرة أن يَفْهَمَ الصورة الصحيحة الكاملة للعالم الإسلامي بدون إتقانه للغة العربية** » .

من أهم ثمرات إتقانه للغة العربية في مصر انفتاح عقله على المعاني الصحيحة للقرآن ، وأنه ليس كما يعتقدُ الغربيون الذين تحملُ عقولُهم صورة مشوَّهة عن الإسلام .

وفي هذا يقول: « مما رأيته أنا خلال تصفحي للقرآن أنّه لا يُقدِّمُ رؤية مادية غليظة عن العالم كما يتصوَّر الغربيون خطأً ، بل على العكس من ذلك تمامًا فقد رأيت وعيًا مكثفًا بالألوهية يُعَبِّرُ عن نفسه في تَقَبُّل عقلاني لكل ما خَلَقَه اللّه في هذا الكون ، رأيتُ تناغمًا رائعًا بين العقل والدوافع الحسية ، بين الحاجات الروحية والمطالب الاجتماعية ، وأصبح واضحًا لي أن تدهور المسلمين ليس راجعًا إلى قصور في الإسلام وإنما إلى فَشَل المسلمين أن يحيَوْا بمقتضى رسالته ومبادئه ، فمن المؤكد أن الإسلام هو الذي حَمَلَ المسلمين الأوائل إلى آفاق ثقافية عالية ، وذلك بتوجيه طاقتهم إلى التفكير الواعي المنظم باعتباره الطريق الوحيد لِفَهْم الطبيعة التي خَلَقَها اللّه وسَخَّرَها للإنسان بإرادته ، وكانت توجيهات النبي العظيم ﷺ وتعاليمه تحثُّ المسلمين على اكتساب العلم والمعرفة وتعتبر ذلك من أهم واجباتهم وجزءًا لا يتجزأ من عبادتهم للّه فهو القائل: « طلب العلم فريضة على كلِّ مسلم ومسلمة » ، وهو القائل أيضًا: « أن اللّه لم يخلق داءً إلا وخَلَقَ له دواء » وأن المسلمين ببحثهم عن أسرار الدواء والعلاج يُحقِّقون عبادتهم للّه على أفضل وَجْه ، ويحقِّقون إرادة اللّه في عمارة الأرض ، وهكذا فهموا إشارات القرآن إلى الماء والسماء والنجوم والشمس والقمر والزرع ، إلى آخره ! لقد ترسَّخ في يقين المسلمين من كتاب اللّه وسنة رسوله أن الساعي في طَلَب العلم ييسر اللّه له طريقًا إلى الجنة ، وأن العلماء هم الذين يخشون اللّه حقَّ خشيته . وخلال الفترة الزاهرة المبدعة من تاريخ المسلمين (في القرون الخمسة الأولى) كان أعظم فرسان العلم والمعرفة هم الذين صَنَعوا

الحضارة الإسلامية العظيمة ، ولم يكن في الأرض مكانًا أكثر أمنًا وأكثر تشجيعًا للعلم والعلماء من البلاد التي سادَ فيها الإسلام ، فقد كانت النظافة والحمامات والتقدُّم المادي كلّه في بلاد المسلمين ، بينما كانت أوربا تغوص في أوحال التخلُّف والقذارة والظلام ، الإنسان في القرآن وفي الثقافة الإسلامية مُستخْلَفٌ من اللّه في عمارة الأرض » .

وينبه « محمَّد أَسَد » لعبارة لا يملُّ من ترديدها في كتاباته حيث يقول : **« ليس المسلمون هم الذين جعلوا الإسلام عظيمًا ولكن الإسلام هو الذي جَعَلَهم عظماء ، فلما تحوَّل الإسلام إلى مجرد عادات جامدة وتوقَّف أن يكون برنامج حياة يومية للمسلمين توقَّف نبضُ الإبداع الحضاري الذي حملوه قرونًا فتدهورت أحوالهم ، وانفتح بذلك الطريق أمام الجمود والعُقْم والانحطاط الثقافي » .**

هل يُخضع الإنسان نفسه لمنظومة عقدية لم يصنعها بنفسه ؟

منذ بَدَأَ « محمَّد أَسَد » يهتمّ بالإسلام وهو يَحملُ في عقْلِه العديد من الأسئلة يريد أن يجدَ لها إجابات منطقية مُقْنِعَة ، وعادة ما تأتيه هذه الإجابة في موقف أو مناقشة أو حادثة أو حديث عابر ، وقد يوجِّه استفسارات مباشرة إلى شخص ما ليتعرف على إجابته ، ويقول في هذا : **« عندما بدأ الإسلام يشغلُ فِكْري كنت على وَعْي بأنني أسير في رحلة استكشاف ، وفي كل يوم تنبع في أعماقي أسئلة جديدة وتأتي الإجابات من الخارج ، فيهبط على عقلي انطباع جديد ، أو**

ينفتح باب جديد ، وأشعر كأن شيئًا يستيقظ في صدري كان كامنًا فيه ، فكلما تقدمت في معرفتي بالإسلام أشعر كأن هذه الحقيقة التي انكشفت لي كانت معروفة لي من قبلُ ، بدون وعي مني بذلك فلما انكشف عنها الغطاء ازددت بها يقينًا » .

ورغم أن « محمَّد أَسَد » قد وجد أنَّ كثيرًا من الحقائق الإسلامية تجتذب فِكْرَه وتتجاوب مع فطرته فإنه لم يكن ، كابن للثقافة الأوربية ، يتصور أن يُخْضِعَ الإنسانُ فِكْرَه ونظرته الكلية إلى الحياة لمنظومة عقدية لم يصنعها هو بنفسه .

بهذه الفكرة ذَهَبَ « محمَّد أَسَد » إلى الشيخ المراغي ليسأله قال : « **يا شيخ مصطفى لماذا ينبغي على الإنسان أن يحصرَ نفسه في تعاليم دين معين وفي مجموعة واحدة بعينها من الأوامر ؟ أليس من الأفضل للإنسان أن يخضع كلَّ الإلهامات الأخلاقية لضميره الشخصي ويتبع صوته الجواني ؟ ! »** .

ويرد الشيخ على صديقه فيقول : « **إن ما تريد أن تقوله بعبارة أخرى يا أخي الشاب هو : لماذا يُلزم الإنسان نفسَه بأي دين أو عقيدة تأتيه من خارج نفسه ؟ والإجابة ببساطة هي أن هناك قلّة قليلة من البشر كالأنبياء مثلًا وحدهم هم القادرون على فَهْمِ هذا الصوت الجَواني الذي يأتيهم من أعماق ضمائرهم الشخصية ، أمَّا معظمنا من البشر فمقيدون بمصالحهم ورغباتهم الخاصة ،**

فإذا كان على الإنسان أن يتبعَ ما يمليه عليه عَقْلُه أو بالأخرى هواه فستكون هناك فوضى أخلاقية ، ولن نتفقَ أبدًا على طريق مشتركة للسلوك . وقد تسأل ألا يوجد استثناء من القاعدة بالنسبة لبعض المستنيرين الذين يرون أنهم ليسوا في حاجة إلى مَنْ يرشدُهم إلى ما هو صواب وما هو خطأ ؟! ولكن حتى في هذه الحالة سوف أسألك : « ألن يدّعي كثير من الناس حقوقًا استثنائية لأنفسهم ؟ وماذا تكون النتيجة عندئذ إلا التشرذم والخلافات المهلكة ؟ » .

في أوائل ربيع سنة ١٩٢٤ م غادر « محمَّد أَسَد » مصر في رحلة طويلة استغرقت عامين من الزمن زار فيها الأردن للمرة الثانية حيث التقى الأمير عبد اللَّه (الجد الأكبر للملك الحالي) ووصفه فأجاد وصفه . ثم زار سوريا للمرة الثانية ومَكَثَ فيها فترة أطول ، ثم ذَهَبَ إلى العراق ليعود إلى موطن هواه ، إلى الصحراء العربية وحياتها البدوية .

بغداد تحت الاحتلال

تحدَّث عن بغداد وكانت في ذلك الوقت تحت الاحتلال البريطاني وتحدَّث عن شعبها فكأنه يتحدَّث عن عراق اليوم تحت الاحتلال الأمريكي .

يقول « محمَّد أَسَد » : **« وجدت في قلوب العراقيين كراهية عارمة للقوى الأجنبية التي تُصادر حُرِّيَّتهم ، فقد كان أهل بغداد على مرّ العصور مسكونين بعشق الحرية كأنها الشيطان تَلَبَّسَ به الإنسان ، تنطبع الكراهية على أسارير وجوههم فتنطق مرارة بشعة ، ولكني لمحت انفراج أساريرهم في أحيان كثيرة عندما تطرأ عليها ابتسامة عابرة فتتحول وجوههم إلى وجوه ملائكيَّة ، فقد لاحَظْتُ أنَّ العراقيين يُكَشِّرُون ملامحهم أمام الأجنبي الكريه ولكن تنفرج أساريرهم عندما يلتقون أصدقاءَهم من العرب في أماكن اجتماعاتهم العامة فتسمع الضحكات المتبادلة »** .

كان « محمَّد أَسَد » في بغداد عندما وَافَق البرلمان العراقي ، ضد الإرادة الشعبية في ٢٩ مايو ١٩٢٤ على معاهدة صداقة مع بريطانيا العظمى ، فَهَبَّت الأمة تدافع عن نفسها ضد الصداقة المزعومة مع الدولة المحتلَّة ، انطلقت المظاهرات الصاخبة في الشوارع فاستجابت سلطات الاحتلال البريطاني بإطلاق الأعيرة النارية وسقط كثير من الشهداء ، ما أشبه اليوم بالأمس : مشهد الاحتلال والقتل والابتزاز يتكرر في العراق بصورة أبشع ، تَغَيَّرَ الزمن وتَغَيَّرَت الوجوه والظروف ولكن زادت شراسة المحتل وتفاقمت عمالة بعض أهل العراق ، وأصبح للعمالة عقائد ومناهج وبرزت أهمية بترول العرب لبناء إمبراطورية أمريكية جديدة فوق حطام بلاد العرب والمسلمين وفوق أشلائهم ، وهم اليوم بسبيل

إبرام إتفاقية مشبوهة تُكَبِّل الشعب العراقي بقيود أمريكية تسمح بتمديد الاحتلال ونَهْبِ ثروة العراق البترولية !

إيران وتراثها الفارسي

انتقل « محمَّد أَسَد » إلى إيران في رحلة استغرقت ثمانية عشر شهرًا ، وله في إيران ملحمة طويلة ، وَصَفَ فيها باقتدار مولد أسرة شاه إيران على يد جندي كان يعمل حارسًا للسفارة الألمانية خادمًا لسيده الذي لم يدَّخِرْ وسعًا في إهانته ، وكيف تحوَّل إلى سياسي مشهور وهو أُمِّيّ ، ثم كيف ارتقى عرش إيران باسم شاه رضا خان . قصة صعود إلى سُدَّة الحكم أشبه بالقصص الخرافية لا تحدث إلا في بلاد الشرق وفي عصور الانحطاط !! وأبرز ما لاحَظَه « محمَّد أَسَد » على الإيرانيين بصفة عامة ذلك الحزن العميق الدَّفين مع ميل شديد للبكاء على الموتى ، وله تحليل تاريخي معقول يصله بميراث فارسي قديم ، ولا يقف به عند واقعة مقتل الحسين بن عليّ ومأساة أهل البيت في كربلاء كما يتبادر إلى الذِّهن .

لقد كَنَسَت الفتوحات الإسلامية مُلْكَهم القديم وطَغَتْ ثقافة الإسلام الصاعد على تُراثِهم الثقافي الوثني الذي اعتزوا به زمنًا طويلًا ، وحل محل ذلك شعور بالمهانة وتمرّد نفسي مكبوت على سقوط الإمبراطورية الفارسية والكرامة الفارسية ، وهذا ما كان

ماثلاً في عَقْلِ ذلك المجوسي الذي قَتَلَ عمر بن الخطاب بخنجر مسموم وهو قائم يصلي إمامًا للمسلمين في مسجد المدينة .

فشيعة إيران كما يرى « محمَّد أَسَد » عندما يبكون بحرقة وقَلْبٍ مَكْلُوم أكثر من بقية الشيعة في العالم ، لا يبكون في الحقيقة مقتل الحسين وأهل بيته فقط وإنما يبكون أيضًا على أنفسهم وعلى المجد التاريخي الذي حُرِمُوا منه على يد العرب ، وهذا سرُّ الحزن الذي يَطْبَعُ الوجوه المستطيلة والعيون التي اعتادت على البكاء الحار على الموتى ، والسَّواد الذي يلفُّ النساء الإيرانيات ، كل ذلك تراه وتشعر به حتى في أمسيات الصيف عندما يخرج الرجال والنساء للنزهة على ضفاف الأنهار في طهران ، حيث يجلس الجميع في صَمْت ينظرون إلى خرير الماء ، يتأملونه ساعات بلا مَلل ، ولا يجري بينهم أي حديث ولا تتحرك شفاههم بابتسامة .

يُلَخِّصُ « محمَّد أَسَد » انطباعاته عن إيران في عبارات موحية حيث يقول : **« تَعَرَّفْتُ على الشعب الإيراني عن قُرْبٍ وعرفت حياته وأفكاره ، هذه الأرض وتلك الحياة الإيرانية المعقَّدة المُبْهرة تُمَثِّلُ عندي جوهرة قديمة بالية ضَعُفَ لألاؤها فأصبح باهتًا ، حياة متقلبة على كثير من الأوجه قد تُثِيرُ العجب أو الإعجاب ولكنها لم تقترب من شغاف قلبي كما اقترب عالم العرب البلّوري الشفاف ، إذا نظرت إليه رأيت وجهه مشرقًا ، فإذا أمعنت النظر فيه نفذت عيناك في أعماقه حتى القاع »** .

في المدينة المنورة

يَصِفُ « محمَّد أَسَد » المدينة المنوّرة بكلمات رقيقة تنمُّ عمَّا يُكِنُّه لها في قلبه من محبّة وإعزاز ، وهو لا يصفها من موقف زائر عابر أو مشتاق التقى حبيبه ، ولكن من موقف المقيم المستقِرّ ، فقد كان له بيت فيها يأوي إليه فترات طويلة لعِدَّة سنوات ، ذاق فيه طَعْمَ السعادة بجوار الحبيب المصطفى ﷺ ، واستظلَّ بما تتمتع به المدينة من هدوء وسكينة ، وأَنِسَ بصحبة أهلها وسماحتهم وكَرَمِ ضيافتهم . وكان له منهم أصدقاء كُثر يبشّون في وجهه ويحيونه ويرحبون به كلّما رَأَوه يَمُرُّ بهم في الطريق .

وعادة ما يهتم « محمَّد أَسَد » في وَصْفِه لبيئة ما بعناصر ثلاثة : الصورة التي تنطبع على العين من مشاهد ، وبالصوت الذي يخاطب السمع ويتفاعل مع الوجدان ، وبالعلاقات الاجتماعية بين الناس ، ويحاول من خلال ذلك كله أن يَسْتَشِفَّ القِيَمَ الفكرية والروحية التي تُمَثِّلُها هذه البيئة للإنسان وكيف يتفاعل معها ويتأثر بها ، وهي نظرة تكاملية تُمَيِّزُ كتابات « محمَّد أَسَد » عندما يتعرَّضُ لوصفِ أيّ بيئة صادفته في حياته الحافلة .

إنه قد يتفاعل مع صوتِ إنسان أو حيوان أو آلة موسيقية يأتيه من قريب أو بعيد فينصت له وتُسجِّله ذاكرته ، ليطفو على قَلَمِه بعد

مرور سنوات حيًا كأنه قد حَدَث بالأمس ، فالزمن عنده سلسلة من لحظات كأنها حاضر ممتدٌ ، فهو لا ينسى مثلاً صوت رجل سَمِعَه وهو هاجع مستكن في بيته بالمدينة المنوّرة ، كان يغني بصوت رخيم يتابعه بِشَغَفٍ وهو يبتعد رويدًا رويدًا حتى يتلاشى ، وتعود المدينة إلى صَمْتِها وهدوئها المحبَّب إلى النفس ، فإذا حلَّ المساء يتطلع إلى صفحة السماء فيرقب القمر وهو يسري مع هبات من نسيم دافئ يشبهِّه باللبن الطازج .

ويَمْضِي « محمَّد أَسَد » في وَصْفِ أجواء المدينة وحياتها وحركة سكانها وعلاقاتهم الاجتماعية ، وكأنه يرسم صورة حَيَّةً للمدينة في وقت مبكر من القرن العشرين . مَنْ يقرأُ هذا الوصف لا يستغرب الشعور بالسعادة والغبطة الذي يسيطر على زوّار مدينة الرسول ﷺ إلى يومنا هذا .

نعم ، تغيرّت أشياء كثيرة في المدينة ، وتَغَيَّرَ الناس فلم يعودوا كصحابة رسول اللَّه ﷺ ، ولم يَعُد الدين في القلوب رَطبًا طازجًا كما كان على عَهْدِ الرسول ﷺ ، توقَّفَ الوحي عن النزول ، ولكن بقي للمدينة حبُّ المسلمين لها ، ويطلق المسلمون عليها اسم « مدينة النبي » . ولا تزال هذه المدينة المباركة تعكس في أجوائها تواضع النبي العظيم ﷺ وتتردد في جنباتها أصداء عباراته

الخالدة : ما أنا إلا رسول .. ما أنا إلا بشر ! ..

ولعلَّ هذا التأكيد النبوي على بشرية محمد ﷺ هو الذي مَكَّنَ للشعور بعبودية الإنسان لله وحده ، ففي المدينة كما في سائر بلاد الصحراء العربية لا أحد يدعو أحدًا - مهما علا مقامه « يا سيدي » أو بالأحرى « ربي » « My Lord » إلا عندما يخاطب خالقه فقط .

كان لمحمَّد أَسَد (إلى جانب حياته الروحية في المدينة) حياة اجتماعية دافقة ، وحياة فكرية خصبة ، فقد كان يتردد على مكتبتها العامرة بصنوف المعرفة ، يَصِفُها لنا بالتفصيل ، ثم يَصِفُ لنا واحدة من زياراته الكثيرة للمكتبة فيقول : **« دلفتُ يومًا إلى البهو ذي القبة العالية ، وقد اصطفَّت علي جدرانه خزائن الكتب بأبوابها الزجاجية حيث توجد آلاف الكتب ، بعضها من المخطوطات النادرة في العالم الإسلامي ، مثل هذه الكتب هي التي أعطت المجد للثقافة الإسلامية ، إنه مجدٌ مضى وانقضى بعيدًا كرياح الأمس ، مكثْتُ هُنيهةً أتأمل الكتب وقد سرحَتْ خواطري إلى الماضي التليد للمسلمين ، وأنا أشعر بالحسرة على حاضرهم »** .

ولكن أيقظه من خواطره التي استولت عليه صوتُ رجلٍ يجلسُ قريبًا منه وأمامه كتاب يقرأ فيه ، إنه واحد من أعزِّ أصدقاء « محمَّد أَسَد » ومن أكبر علماء المسلمين في عصره ، كلمته نافذة عند الملك ابن سعود ، وكان يساعد « محمَّد أَسَد » في الماضي كثيرًا .

أغلق كتابَه وجَذَبَ « محمَّد أَسَد » ليجلس إلى جواره فاستجاب مُرَحِّبًا به وقَبَّلَ جبهته ، ثم بادره قائلًا : « **كنت أُفَكِّر يا شيخ لِمَ ذهبْنا نحن المسلمين بعيدًا جدًّا عن هذا** (وأشرت على الكتب) **لنستقرَّ في حاضرنا هذا البائس المتخلِّف !** » . أجاب الشيخُ المُسِنّ : « **نحن إنما نجني ما زرعْنَاه ، كان الإسلام هو الذي جَعَلَنا عظماء ، وكنا نَحمِلُ رسالة ، وما دمنا مخلصين لهذه الرسالة بقيت قلوبنا عامرةً وبقيت عقولنا تتألَّقُ بالعلم والمعرفة ، ولكن ما إن نسينا لماذا اختارنا اللّٰه لهذه الرسالة سَقَطْنَا ، لقد رحلْنا بعيدًا جدًّا عن هذا** (وأشار إلى الكتب كما أشرْتُ إليها من قبل) ، **لقد ابتعدنا كثيرًا عما تعلَّمْنَاه من رسول اللّٰه ﷺ منذ ثلاثة عشر قرنًا مَضَتْ ، نسينا أن الرسالة قد بدأت بأمرٍ إلهي للنبيّ بالقراءة :** ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ [العلق : ١] ، **فأين نحن من هذا ؟ !** » .

عالم الدَّجَّال

جاء موعد صلاة المغرب فَذَهَبَ مع الشيخ إلى المسجد النبوي .. فلما قُضِيَت الصلاة التفَّ الناسُ حولَ الشيخ وشرعوا يسألونه ويستمعون إلى حكمته ، سأله أحدُ المصلِّين : « قل لي يا شيخ : لماذا يلبس الفرنجة قبعات تخفي عيونهم ؟ وكيف يمكنهم أن يروا السماء ؟ » .

أجاب الشيخ : « إنهم لا يريدون أن يروا السَّماء » .

قالها وهو يُومئ بنظرة جانبية إلى « محمَّد أَسَد » ثم استأنف

الحديث فقال : « ربما لأنهم يخشون أن تُذَكِّرهم السماءُ باللّه الخالق ، وهم لا يريدون أن يتذكروا اللّه أيام الأسبوع » ، فضحك الجميع سوى البدويّ صاحب السؤال فقد كان مُصِرًا على المعرفة حيث قال : « ولكن لماذا نجد اللّه كريمًا معهم كلَّ هذا الكرم ، فقد أعطاهم الثروة التي حُرِمَ المؤمنون منها ؟ » .

أجاب الشيخ : « هذا بسيط .. إنهم يعبدون الذهبَ ، وإلههم دائمًا موجود في جيوبهم » (وفي إشارة بيده نحو « محمَّد أَسَد ») قال : « صديقي هنا يعرفُ كثيرًا عن الفرنجة أكثر مني ؛ لأنه جاء من بينهم ، وقد مَنَّ اللّه عليه إذ أخرجه من هذه الظلمة وهداه إلى الإسلام » . قال البدويّ : « أهذا صحيح يا أخي : هل كنت أنت واحدًا من الفرنجة ؟ » ، وعندما أَوْمَأْتُ بالإيجاب أَخَذَ يردِّد بصوت خفيض : « الحمد للّه .. الحمد للّه الذي يهدي إليه من يشاء » . ثم قال : « أُحبُّ أن تخبرني يا أخي : لماذا تَرَكَ الفرنجةُ اللّهَ وراءَ ظهورهم فلم يُقْبِلُوا عليه ؟ » .

أجاب « محمَّد أَسَد » : **« هذه قصَّة طويلة ولا أستطيع تلخيصها في كلمات قليلة ، ولكن كلَّ ما أستطيع أن أقولَه الآن هو أن عالم الفرنجة الآن هو عالم [الدَّجَّال] ، عالم يتألَّق بالنعم الباهرة التي يخدعُ بها الدَّجَّالُ أتباعَه ، ألم تسمعوا نبوءةَ الرسول ﷺ أنه في آخر الزمان سوف يتبع كثرةٌ من الناس الدَّجَّالَ معتقدين أنه الإلهُ الحقُّ ؟! »** .

ثم شَرَعَ يسردُ عليهم قصة الدَّجال كما وردت في الأحاديث النبوية ، ونَظَرَ الشيخ إليه مُشجِّعًا للاستمرار في حديثه .

قال « محمَّد أَسَد » : « **في النبوة أنَّ الدجال سيكون أعور ، ولكن اللّه وَهَبه قوى خَفِيَّة بالعين المبصرة ، فهو يستطيع أن يرى بعينه الواحدة ما يجري على مسافات لا نهائية ، ويستطيع أن يسمع بأذنيه ما يقال في أقصى بقعة من الأرض ، وأن يطير حولَ الأرض في أيام قليلة ، وأن يستخرج خزائن من الذهب والفضة فجأة من تحت الأرض ، ويستطيع أن يُنزلَ المطرَ وأن ينمِّي النباتات بأمره ، يقتل الشخصَ ثم يعيدُ إليه الحياةَ مرة أخرى ، وهو يفعلُ كلَّ هذا بحيث يتصور ضعافُ الإيمان أنه إلهٌ بحقٍّ ، فيسجدون له خشوعًا من دون اللّه ! » . ولكن أولئك الذين وَهَبَهم اللّهُ إيمانًا راسخًا يمكنهم أن يَقْرءُوا على جبهته عبارة مُسطَّرة بالنار تقول : [الكافر باللّه] ومن ثَمَّ يعلمون أنه ليس إلا مخادعًا فَتّانًا جاءَ ليختبرَ إيمانَ الناس** » .

نظر البدوي السائل بعيون واسعة مِلْؤُها الدهشة والاستغراب وهو يقول في نفسه : « أعوذ باللّه من الشيطان الرجيم » بينما تحوَّلَ « محمَّد أَسَد » إلى صديقه الشيخ فقال : « **أليست هذه القصة الرمزية تنطبق على أوصاف الحضارة التكنولوجية الحديثة ؟ : إنها تنظر بعين واحدة ، بمعنى أنها تنظر إلى جانب واحد من الحياة ، تنظر إلى التقدُّم المادِّيّ فقط وتُغفلُ تمامًا الجانب الروحي للحياة ، بآلاتها ومخترعاتها الميكانيكية والكهرومغنطيسية تُمَكِّنُ الإنسان أن يرى**

ويسمع أبعد كثيرًا مما تُؤهِّلُه له قدراته الطبيعية ، وتقطع المسافات الهائلة بسرعة لا تُحدُّ ، بقدراتها العلمية تُنقطُ المطرَ وتجعل النبات ينمو بمعدلات أسرع ، وتستخرج كنوز الأرض من الثروات الطبيعية ، بأدويتها تعالج مرضى كان ميئوسًا من شفائهم أو في عداد الأموات ، بينما فظائعها المروعة تُدَمِّرُ الحياة ، تَقَدُّماتها المادية بالغة القوة والإبهار حتى أن ضعاف الإيمان أصبحوا يعتقدون أنها هي الإله الحقيقي ، ولكن أولئك الذين لا يزالوا مستعصمين بإيمانهم باللّٰه الخالق يستطيعون أن يتبينوا أن عبادةَ هذا الدَّجال المخادع معناه إنكار اللّٰه الخلاّق العظيم » .

صاح الشيخ : « إنك على حقٍّ يا محمد .. إنك على حقّ » أخذته البهجة والإضاءة الفكرية الجديدة التي أضافها « محمَّد أَسَد » على قصة الدجال ، فربت على ركبته موافقًا وهو يقول : « **لم يخطر في بالي أبدًا أن أنظر إلى نبوءة الدَّجال في ضوء هذا الذي ذكرْتَ ، وإنك لعلى حقّ فيما ذهبت إليه ، فبدلًا من أن ينظر الناس إلى التقدُّم الذي حقَّقه الإنسان في العلم باعتباره مِنَّةً من اللّٰه علينا ونعمة فإن كثيرًا من الناس اعتقدوا أن هذا التقدُّم العلمي هو الغاية في حدّ ذاته وأنه يستحقُّ التقديس والعبادة من دون اللّٰه »** .

انخرط « محمَّد أَسَد » في حديثه إلى نفسه فقال : « **حقًّا لقد مَنَحَ الإنسانُ نفسَه لعبادة الدَّجال ، وفَقَدَ براءته من زمن طويل ، قطَعَ صلته الجوانية بالطبيعة ، وأصبحت الحياة لغزًا عنده ، فهو شكَّاك ولذلك آثر العزلة عن أخيه الإنسان ، وتوحَّد مع نفسِه ولكنه لم يتطمر في هذه**

الوحدة ، إذ كان عليه أن يحاول دائمًا السيطرة على الحياة بوسائل برّانية ، فلم تَعُد حقيقة أنه حيّ في حدّ ذاتها تمنحه ما يطمح إليه من أَمْنٍ جوّاني ، بل يكدح من أجل تحقيق هذا الأمن المفتقد ، فتورط في مسيرة من الألم المتواصل يتجرعه لحظة بلحظة ، لقد فقدت حياته بوصلة التوجهات الغيبيّة الروحية فَصَمَّم أن يخوض الحياة بدونها ، فبدلًا عن ذلك شَرَعَ يخترع لنفسه باستمرار حلفاء ميكانيكيين ، وهكذا رأينا اندفاعه النَّهم إلى التكنولوجيا ، إنه يخترع كل يوم آلة جديدة ويمنح كلَّ واحدة منها شيئًا من روحه أملًا في أن تناضل من أجل وجوده وبقائه ، وهذا ما تفعله هذه الآلات ، ولكنها في نفس الوقت تخلقُ له احتياجات جديدة باستمرار ، وتخلق له مخاوف ومخاطر جديدة ، وعطشًا لا يرتوي لآلات أكثر حدّة وأكثر كفاءة ، أصبحت الآلات هي أولياؤه من دون اللّه . أما روحه فقد انطمرت في عجلة العمل الدائرة لإنتاج آلات جديدة أكثر جسارة وأكثر قوة وروعة ، وأما الآلة فقد تَبَخَّرَ هدفُها الحقيقي : أن تكون حامية ومُثرية للحياة وتَدَثَّرت في ثوب آلهة ، آلهة من الحديد والصلب . أما قساوسة هذه الآلهة ودعاتها فإنهم لا يَعُون أن سرعة التقدُّم التِّقْنيّ ليست نتيجة للنمو الإيجابي للمعرفة فقط بل أيضًا هي نتيجة اليأس الروحي ، إن هذه الإنجازات المادية الهائلة التي يَدَّعي الإنسانُ الغربيُّ أنه بها قد أصبحت إرادته تسخّر الطبيعة ، هي في صميم حقيقتها ذات طبيعة دفاعية : فَخَلْفَ واجهتها الخلاّبة يتسترُ خوفُه من المجهول ! وهكذا خَذَلَه أولياؤه الميكانيكيون ، لقد أخفقت الحضارة الغربية في إحداث التوازن اللازم بين حاجات الإنسان الجسدية والاجتماعية من ناحية وبين تطلعاته الروحية ،

تخلت عن الأخلاق الدينية دون أن تتمكن من إفراز أي نظام أخلاقي آخر من جَوفها الخَرِب ، ولم تستطع أن تحولَ دون سقوط الإنسان الغبيّ فريسة في شركِ أيّ شعار تافِهٍ مرفوع مهما كان غامضًا أو غريبًا مما يستطيع « الديماجوجيون » والمفترون اختراعه من وقت لآخر ، لقد رَفَعَ هؤلاء « الديماجوجيون » بإعلامهم تكنيكَ التنظيم والسيطرة إلى مستوى الفن الجميل يخلبون به الألباب ، دول الغرب تكشف عن عجزها ا اليومي التام أن تسيطرَ على القوى العمياء التي جاء بها العلماء حتى وصلت إلى مرحلة تآزرت فيها الإمكانات العلمية مع الفوضى العارمة التي أصبحت تعمُّ العالم ، ومع الفقدان التام للتوجه الديني الحقيقي أصبح الغرب غير قادر أخلاقيًا أن ينتفع بالنور الذي جاءت به المعرفة العظيمة ، وعليه تنطبق هذه الآية القرآنية : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَـٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ۝ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ [البقرة : ١٧ - ١٨] .

ويمضي « محمَّد أَسَد » في حديثه النفسي فيقـول : « ومع كلِّ هذا فإن الغربيين في غَطْرَسَتِهِم يعتقدون أن حضارتهم هي التي ستأتي بالنور للعالم المتخلِّف ، كانوا في القرن الثامن عشر والتاسع عشر يحاولون نَشْرَ إنجيلهم المسيحي (مع زَخْفِهِم الاستعماري) في أنحاء العالم ، أما الآن وبعد أن انطفأت جذوة حماسهم الديني فقد أصبحوا لا ينظرون إلى الدين إلا كموسيقى مُهَدِّئة في خلفية المكان ، سُمِحَ للدين (على مضض) أن يُصَاحِبَ الحياة لا أن يُهَيْمِنَ عليها ، ومن ثَمَّ بدءوا ينشرون الإنجيل المادي لحضارتهم ، وأعني به « أسلوب الحياة الغربية » ، وساد الاعتقاد

بأن كل المشكلات الإنسانية يمكنُ حلُّها في المصانع والمعامل وعلى مكاتب رجال الإحصاء ، وهكذا غَزَا الدَّجّالُ العالم ! » .

شَمَلَ الصمت لمدة طويلة .. ثم نَطَقَ الشيخُ من جديد ، فقال : « ألأنك عرفْتَ ما يعنيه الدَّجّال اعتنقت الإسلام يا بُنيّ ؟ » .

فرد « محمَّد أَسَد » : **« هذا صحيح بمعنى من المعاني .. لا بدَّ أن الأمر كان كذلك »** .

فقال الشيخ : « لعله كان آخر خطوة في الطريق .. كما فهمت من كلامك السابق عن طريقك إلى الإسلام ، ولكن متى بالتحديد خطر لك لأول مرة أن الإسلام ربما يكون هو غايتك النهائية ؟ » .

في أفغانستان

يواصل « محمَّد أَسَد » حديثه إلى الشيخ وكأنه يُذَكِّر نفسه بمرحلة حاسمة في رحلته إلى الإسلام فيقول : **« أعتقد أنَّ ذلك قد حَدَثَ في ليلة من ليالي الشتاء بأفغانستان ، عندما فقد حصاني حِذَاءَه الحديدي ، وكان عليَّ أن أبحثَ عن حَدَّادٍ في قرية عرفْتُ أنها كانت على مسافة بعيدة من الطريق الذي كنت مسافرًا فيه ، وفي القرية قال لي رجل : « إنك مسلمٌ ولكنك لا تعرف ذلك عن نفسك » حَدَثَ ذلك قبل ثمانية أشهر من اعتناقي للإسلام ، وكنت آنذاك في طريقي من هيرات إلى كابول »** .

يصف « محمَّد أَسَد » رحلته في وسط أفغانستان وهو يقطع ممرات هندكوش حيث تغطي الثلوج قِمَمَ الجبال ، ثلوج بيضاء لامعة تخطف الأبصار .

يقول « محمَّد أَسَد » : « انتابني في تلك الليلة شعور غريب هو مزيج من البهجة والحزن في آن واحد ، كنت حزينًا لأن الناس الذين عشت معهم في الشهور الماضية يبدو أنهم قد انفصلوا ـ بحجب ضبابية ـ عن القوّة والنور والنماء الذي كان يمكنُ لإيمانهم أن يمدَّهم بها ، وكنت سعيدًا لأن القوة والنور والنماء الذي ينطوي عليه هذا الإيمان كان على مقربة من بصيرتي مثل هذه الجبال البيضاء والسوداء المحيطة بالمكان ويمكن لمسُها بكفِّ اليد . بَدَأ حصاني يعرجُ ، وشيء ما في حوافره يُحدِثُ خشخشةً باحتكاكه في الأرض ، لقد انخلعت حديدة حذائه من موضِعها وظلَّتْ معلقةً فقط بمسمارين ، وصلت إلى البلدة والتقيت حكيمَها (هكذا كانوا يُسَمُّون رئيس المنطقة) فهو حاكمها ، كان ينتمي بصلة قربى إلى الملك « أمان اللّه » . أقسم عليّ أن أمكثَ معه ليلتين على الأقل في قلعته كما تقتضي أصول الضيافة فَقَبِلْتُ ، وبعد عشائنا في اليوم الثاني استدعى مُنشِدًا من البلدة فَغَنَّى بلغة « البشتو » وهي لغة لا أفهمها ، كان بصحبته ثلاث آلات موسيقية بدائية ، لكن خلال إنشاده التمعَتْ أمامي كلماتٌ فارسية مألوفة لي ، وأدركت منها أنه يتحدَّث عن معركة النبيّ داود مع جالوت في حرب الإيمان مع جبروت الطغيان . بدأت الأغنية في تواضع وخشوع ، ثم ارتفع إيقاع نغماتها وكلماتها في عُنفٍ

وتدفق عاطفي قوي وحار ثم انتهت بصيحة نصر ! وعندما انتهى الإنشاد عَلَّقَ الحكيم بقوله : « لقد كان داود صغيرًا ولكن إيمانه كان عميقًا وعظيمًا » فلم أملك نفسي إلا أن أقول : « وأنتم كُثْرٌ ولكن إيمانكم ضعيف .. هزيل ! » . نَظَرَ إليّ مضيفي بدهشة واستغراب ، وارتبك خجلاً مما قُلْتُه بطريقة عفوية ، ولكني سارعت أشرحُ له المسألة وجرى حديث طويل أَكْثَرُه أسئلة وقَلِيلُه إجابات ، قلت : « ما الذي جَعَلَكم أيها المسلمون تفقدون ثِقَتَكم بأنفسكم ؛ تلك الثقة التي مَكَّنَتْكم في يوم من الأيام أن تنشروا عقيدَتَكم من الجزيرة العربية إلى شواطئ الأطلسي غربًا وإلى أعماق الصين شرقًا ، والآن تستسلمون بمذلَّة وهوان لأفكار وعادات الغرب ؟ لماذا ، وقد كان أجدادكم هم الذين أضاءوا الدنيا بالعلم والفكر والفنّ ، في وقت كانت أوربا تغطُّ في نوم عميق وتعيش في همجية شديدة وجهل مُطْبِق ، لماذا لا تستعيدون شجاعتكم وتعودون إلى عقيدتكم الباهرة المضيئة ؟ ! ما الذي حَمَلَكم لكي تجعلوا من « أتاتورك » ـ هذا المسخ الذي أنكر كلَّ القِيَم الإسلامية ـ قدوَتَكم ورمزًا للإحياء الإسلامي ؟! أيّ إحياء هذا الذي فَعَلَه أتاتورك ؟! » ظلَّ مضيفي صامتًا ، وقد بَدَأَ الثلج يتساقط في الخارج مرة أخرى ، وانتابني شعور ممزوج بالخوف والسعادة ، نفس الشعور الذي انتابني وأنا أقترب من هذه البلدة (ديه زانجي) لقد استشعرت المجد الذي كان ، والعار الذي هَبَطَ الآن على أبناء هذه الحضارة العظيمة الغاربة ، قلت له : « كيف حَدَثَ أنَّ دينَ نبيكم بكلِّ وضوحه وبساطته قد دُفِنَ تحتَ أنقاض من العُقْم الفكري والخرافات والجدل الفارغ بين علمائكم ؟ ! كيف حَدَثَ أن

أُمراءَكم ومُلاّك الأراضي عندكم يعيشون في تَرَفٍ ورفاهية بينما يرزح أكثر إخوانهم المسلمين تحت وطأة الفقر المدقع ، ونبيكم هو القائل : « لا يؤمن من بات شبعانًا وجاره جائع ! » هل يمكنك أن تشرح لي لماذا أزحتم المرأة إلى مؤخرة حياتكم بينما كان النساء حول النبي ﷺ وحول صحابته يشاركون بقدر هائل في حياة رجالهم ؟ كيف حَدَث أيها المسلمون أن أكثركم يعانون الجهل وقليل جدًا هم الذين يستطيعون القراءة والكتابة ؟ مع أنَّ نبيكم هو الذي أعلن أن طَلَبَ العلم فريضة على كلِّ مسلم ومسلمة ، وأنَّ فَضْلَ الرجل المتعلِّم على الجاهل كفضلِ القمرِ في اكتماله على كلِّ النجوم .. ؟ » ومازال مضيفي ينظر إليّ مشدوهًا وهو صامتٌ حتى بدأت أشعر أن حديثي الذي تَدَفَّقَ مني كالسيل قد أساءَ إليه إساءةً بالغة ، كان رجل الموسيقى والإنشاد لا يزال حاضرًا وهو يمسكُ بالعود في يده وينظر في بلاهة غير فاهم تمامًا معنى ما أقولُ حيث كنت أتحدث بالفارسية ، غير فاهم كيف تَسَنَّى لرجلٍ غريب مثلي أن يجترئَ على مخاطبة الحكيم بهذه الحماسة العاطفية المتدفقة ، فلم يلبث أن لَمْلَمَ عباءَته الصوفية الخشنة ولفَّ بها نفسه ثم انصرف . أخيرًا نطق الحكيم المذهول وهو يهمس : « ولكنك مسلم ! » فضحكت مجيبًا : « لا لست مسلمًا ، ولكن أتيح لي أن أعرف من جمال هذا الإسلام ما يجعلني أحيانًا غاضبًا حيث أراكم أيها المسلمون تضيّعونه بسفاهة عجيبة ! واعذرني إذْ تحدَّثْتُ إليك بهذه اللهجة الخشنة فأنا لم أتحدَّث حديث عدوّ ، بل حديث صديق محبّ » . ومرة أخرى يهزُّ مضيفي رأسه مؤكّدًا : « لا .. إن الأمر كما ذكرْتُ لك ؛ إنك مسلم .. ولكنك لا تعرف ذلك عن نفسك ! لماذا لا تقولها الآن ،

وهنا قل : [أشهد أن لا إله إلا اللّه وأن محمداً رسول اللّه] وبذلك تصبح مسلمًا في الواقع ، ومتوافقًا مع الحقيقة التي تُكنُّها في قلبك !! قلها يا أخي الآن وسوف أذهب معك إلى كابل وآخذك إلى الأمير وسوف يحتضنك بين ذراعيه كواحد منا ، وسوف يمنحُك منزلاً وحديقة وقطعان غنم ، وسنحبُّك كلُّنا .. قُلها يا أخي ! » .

ردَّ عليه « محمَّد أَسَد » فقال : « **لو حَدَثَ وقلتُها فلن أفعلَ ذلك من أجل منازل الأمير وحدائقه .. وإنما لأن عقلي قد استراح إليها** » .

لكن الرجل أَصَرَّ على رأيه وقال : « إنك تفهمُ عن الإسلام أكثر مما يفهمه معظمنا ، ما الذي بقي لك أن تفهمه من الإسلام ؟ ! » .

قال « محمَّد أَسَد » : « **الأمر ليس مسألة فَهْم وإنما هو قضية اقتناع بأن القرآن هو بالفعل كلام اللّه ، وليس مجرد إنتاج عقلي لإنسان عظيم ، أنه وحيٌ من اللّه وليس حكمة فيلسوف ! رحلت ولكن بقيت كلمات صديقي الأفغاني لا تفارقني خلال الأشهر التالية على هذا اللقاء العجيب** » .

على صهوة جواده ركب « محمَّد أَسَد » قاطعًا جنوب أفغانستان من كابل عابرًا مدينة غزنة القديمة التي خرج منها محمود الكبير منذ ألف عام كي يغزو الهند ، عَبْرَ قندهار قاطعًا جنوب غربي البلاد ، ثم عاد إلى هراة حيث بدأت رحلته في أفغانستان .

وفي أواخر شتاء ١٩٢٦ غادر هراة وبدأ رحلة طويلة عائدًا إلى

وَطَنِه الأصلي ، تخلى عن جواده واستقلَّ القطار من حدود أفغانستان متجهًا إلى مرْو في تركستان الغربية مارًّا بسمرقند وبخارى وطشقند ، ومن ثَمَّ عَبَرَ سهول تركمانستان الفسيحة إلى جبال الأورال حتى موسكو .

كانت كلُّ هذه المناطق الإسلامية الواسعة قد سقطت تحتَ الاحتلال السوفيتي وأصبحت جزءًا من النظام الشيوعي الشامل .. فماذا كانت انطباعات « محمَّد أَسَد » عن هذه الرحلة ؟

إنه يقول : « **كانت انطباعاتي في قَلْب الإمبراطورية السوفيتية هي الأطول بقاء في الذاكرة ، ففي محطة السّكة الحديد بمرْو شاهدت لافتة كبيرة تصور شابًّا من عامة الشعب ، في ثياب عُمَّال زرقاء اللون يركلُ بحذائه شيخًا مُضحِكًا بلحية بيضاء وثياب فضفاضة بارزًا من سماء ملبدة بالغيوم ، وتحت هذه الصورة كلام مكتوب : « هكذا طرد عمال الاتحاد السوفيتي (الإله) من عليائه ! » يليها عبارة : (منشورات الجمعية اللادينية في جمهوريات الاتحاد السوفيتية الاشتراكية) هذا اللون من الإعلانات الدعائية الرسمية ضد الدين كان منتشرًا في كل مكان : بالأماكن العامة والشوارع وعلى بيوت العبادة وعلى الأخص مساجد المسلمين ، لم تكن صلاة الجماعة بعد قد حُرِّمَتْ بالقانون ، ولكن كان جواسيس الشرطة يُدَوِّنون اسم كل شخص يدخل إلى المسجد ، وكانت السلطات الملحدة تفعل كلَّ شيء لصدِّ الناس عن حضور الصلاة في المساجد** ، [ليس هذا مستغربًا الآن فإنَّ بعض السلطات في الدول

المسلمة تقصرُ حضورَ صلاة الجماعة في المساجد على حاملي البطاقات الإلكترونية ، وتمنع الاعتكاف في المساجد خلال شهر رمضان إلا بإذن مُسبق من سلطات الأمن !] **في الاتحاد السوفيتي كانت الشرطة بالمرصاد لكل من يدخل المسجد ، يُدَوِّنون اسمه في سجلاتهم ، وتجمعُ المصاحف من المسلمين لتحرقَها ، وكان أعضاء الجمعية الإلحادية يَقْذِفُون برءوس الخنازير المذبوحة داخل المساجد لتنجيسها .. والعياذ باللَّه ! » .**

عاد « محمَّد أَسَد » إلى أوربا بعد سنتين من الغياب عنها حيث قَرَّرَ مع خطيبته « إلْسا » أن يتزوجا ، فقد تأكَّد أن حبَّهما رغم هذا الغياب الطويل لم يزد إلا قوة .

يقول « محمَّد أَسَد » : **« كنا نقرأُ القرآنَ معًا ، ونناقش معانيه وقضاياه ، وكانت « إلْسا » مثلي تشعر بدهشة متنامية بهذا التناغم الجوّاني بين التعاليم الأخلاقية والإرشادات العملية ، فالقرآن لم يتطلب الطاعة العمياء من الإنسان وإنما يَحُثُّه على إعمال العقل ، ويخاطب عَقْلَه مباشرة ، فاللَّه ليس بمعزل عن الإنسان بل هو أقرب إليه من حبل الوريد . لم يضع القرآن حواجزَ بين الإيمان والسلوك الاجتماعي ، ولعلَّ ما هو أكثر أهمية من أي شيء آخر أنه لم يبدأ بفرضية مسلَّمة أن الحياة كلَّها مثقلةٌ بالصراع بين الروح والمادة ، أو أن الطريق إلى النور والهداية يتطلب تجريدَ الروح من كل علائق الجسد ، بل حَرَّمَ القرآن كلَّ شكلٍ من أشكال الحرمان الشخصي من طيبات الحياة الدنيا : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ**

﴿زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ [الأعراف : ٣٢] . **وأكد نبي الإسلام أنه « لا رهبانية في الإسلام » وأن السعي في الحياة الدنيا ليس مسموحًا به فحسب ، بل هو من كمال الإيمان ، بل هو واجب ديني « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا »** .

بدأت تتولد في ذهن « محمَّد أَسَد » صورة متكاملة للإسلام كأنها في مرحلة نهائية حاسمة وبشكل مُذْهِل تتجمع فيه أجزاء الصورة ، ويتلاءم نثارُ المعارف التي اكتسبها في طريقه خلال السنوات الأربع الماضية ، وأصبح على حدِّ قوله يرى أمامه كيانًا معماريًّا تتكامل فيه عناصره بتناغم وانسجام ، يَدْعَم بعضها البعض بلا افتعال أو اصطناع ، وإنما بتوازن واتساقٍ ، لتمنح الإنسان شعورًا بأن كلَّ نظرة أو مُسَلَّمة إسلامية تحتلُّ مكانها الصحيح من هذا البناء المعماري الأَخَّاذ .

أعود مرة أخرى لكي أُؤكِّد أنَّ « محمَّد أَسَد » رغم انبهاره بالإسلام لم يكن يساوره أيّ وَهْم بالنسبة للأوضاع التي كانت سائدة في عصره للعالم الإسلامي ، فهو القائل : **« لقد تَبَيَّنَ لي خلال السنوات الأربع التي عِشْتُها في بلاد المسلمين أنَّ الإسلام وإن ظلَّ حيًّا وحاضرًا على الساحة العالمية ، إلا أن أتباعَ هذا الدين (مع إيمانهم بمبادئه الأخلاقية) هُم في حالة من الشلل مُزرية ، غير قادرين على ترجمة معتقداتهم إلى أعمال مثمرة وسلوك عمليّ ، ومع ذلك نراه**

يُؤكِّدُ قائلاً : « إنه ليكفيني من الناحية النظرية أنَّ هذا المشروع قد أمكن تطبيقهُ في المجتمع المسلم ، وأن ما كان ممكنًا في الماضي هو ممكنٌ في الحاضر أيضًا ، لقد انحرف المسلمون بعيدًا عن التعاليم الإسلامية الأصيلة ولم يعودوا يحيون وفقًا للنموذج الذي وَضَعَه النبي العربي منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنًا من الزمن ، ولكن ما يهمني في حقيقة الأمر أن هذا النموذج النبويّ لا يزال مفتوحًا لمن عنده الاستعداد لأن يستمع إلى رسالته ويعمل بمقتضاها » .

ويمضي « محمَّد أَسَد » في تأكيده على حقيقة أخرى : فهو لا يقصر أهمية الإسلام على معتنقيه الذين يجب أن يعودوا إليه ، بل إنه الآن قد أصبح أكثر ضرورة لحياة سائر البشر ، فقد تعقَّدَتْ أمور الدّنيا والمجتمعات بشكل مخيف وأصبحت الحياة على حافة هاوية كارثية يَتَحَطَّم فيها كلُّ شيء ، يقول : « **إننا نحن في العالم الغربي أشدُّ حاجة إلى هذا النموذج من أيّ أمة أخرى** » .

يتابع « محمَّد أَسَد » فيكشف لنا عن أبعاد أخرى من تطوره العقلي والروحي في هذه المرحلة ، حيث يقول : « **لقد أصبَحت المشكلة الإسلامية مشكلتي الخاصة .. إنها تشغلُ عقلي بل تستغرقُه لدرجة أنها استطاعت أن تستبعدَ منه كل اهتمامات أخرى ، وهأنذا أتجاوزُ هذه المرحلة التي لم تكن أكثر من اهتمام عقلي بثقافة وأيدلوجية غريبة أو جذابة ، فأصبحَت الآن بحثًا وجدانيًا جارفًا عن الحقيقة ، لدرجة أنها أعاقتني عن تحقيق ما كنت وعدْتُ به إدارة صحيفة « فرانكفورت**

تسايتونج » من تأليف كتاب عن رحلتي الشرقية ، وكانوا يتوقعون أن يتسلموه مني فوْرَ عودتي إلى أوربا .. » .

اللحظة الفارقة

يحكي « محمَّد أَسَد » واقعة صادفته في برلين كان لها أثَرٌ فاصل على موقفه من قضية الإيمان ، ورغم أنها واقعة بسيطة قد تمرُّ علينا يوميًا دون أن تلفت النظر ، إلا أنها أثارت عنده حالة من التوقُّد الروحي كأنها شرارة من كهرباء ، أطلقت وهجًا مفاجئًا في العقل فرأي شيئًا لم يكن ليراه في الظروف المعتادة .

يصف هذه الواقعة فيقول : **« في يوم من أيام شهر أيلول (سبتمبر) سنة ١٩٢٦ كنت مسافرًا مع زوجتي في قطار برلين ، فَوَقَعَ نظري على رجل يجلس أمامي متأنقًا في ملبسه عليه آثار النعمة والثروة ، وقد وَضَعَ على ركبتيه حقيبة صغيرة أنيقة وفي إصبعه خاتم كبير من الماس ، غير أنني عندما حَدَّقْتُ في وجهه شعرت بأنني أنظر إلى رجل تعيس ، فقد بَدَا عليه القلق ، بل نوع من الشقاء النفسي العميق على خلاف تام مع مَظْهرِه المرفَّه . كان ينظر أمامَه وكأنه ينظرُ إلى شيء بعيد ، ولكنها نظرات فارغة من المعنى ، زاويتا شفتيه متقلِّصتان امتعاضًا أو ألَمًا نفسيًا بعيد الأغوار ، تحوَّلْتُ بنظري قليلاً فرأيت إلى جانبه سيدة بادية اللطف ولكن كانت تقاطيع وجهها هي أيضًا تُعَبِّرُ عن شعور جوّاني بعدم السعادة ، وكأنما كانت تُفَكِّرُ أو تعاني شيئًا يسبب لها الألم ، ورغم ذلك كان ثَغْرُها مفترًا عما يشبه ابتسامة**

جامدة ، أعتقد أنها اعتادت عليها ، ثم أخذتُ أجوِّل ببصري في جميع الوجوه الأخرى فلاحظت (مذهولاً) أنَّ وجوه الناس كلّهم بدون استثناء تُعَبِّرُ عن أَلَمٍ دفين رغم أنهم جميعًا يرتدون ثيابًا حسنة وتبدو عليهم نعمة الحياة المادية والتغذية الجيدة » .

يتابع « محمَّد أَسَد » فيقول : « **في الحقيقة كان هذا المنظر غريبًا عليّ .. فأنا لم يسبقْ أنْ رأيت مثل هذا العدد الكبير من الوجوه التعسة من حولي ، ولعلها كانت موجودة ولكنني لم أَتَبَيَّنْ هذا الانطباع الشقي الحزين من قبل ، كان هذا الانطباع شديد الوقْع على نفسي لدرجة جعلتني أُفْصِحُ لزوجتي عن هذا الشعور الذي داهمني فجأة ، فشرعَتْ هي أيضًا تنظر حولها بعيني رسام اعتاد دراسة القسمات البشرية ، ثم استدارت إليّ وهي تقول مبدية دهشتها : « إنك على حقٍّ .. إنهم جميعًا يبدون وكأنهم يعانون عذاب الجحيم ، ولكني أتساءل : هل هم يُدْرِكون حقيقةَ ما يعتملُ في قرارة أنفسِهم ؟! »** .

يقول « محمَّد أَسَد » : « **كنت على يقين أنهم لم يكونوا ليعلموا حقيقة ما هم فيه من عذاب وإلا لما كان بإمكانهم أن يواصلُوا تبديدَ حياتهم كما يفعلون ، دون أي غاية أبعد من الرغبة في رَفْع (مستوى معيشتهم) ، دون أيّ أمل غير الاستحواذ على المزيد من الملذَّات الماديَّة ، والمزيد من الممتلكات ، وربما المزيد من السلطة أيضًا »** .

عندما عاد « محمَّد أَسَد » وزوجته إلى المنزل تصادف أن جَذَبَ نَظَرَه نسخةٌ من المصحف مفتوحة على مكتبه كان يقرأُ فيها من قبل ،

فرفع المصحف بطريقة آلية وَهَمَّ بإغلاقه ليضعه جانبًا في مكانه المعتاد ، ولكن في هذه اللحظة وَقَعَ نَظَرُه على الصفحة المفتوحة فجرت عيناه عليها سريعًا ليقرأ بصوت مهموس : ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ * حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ * كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ * ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [التكاثر : ١ - ٨] .

يقول « محمَّد أَسَد » مُعلِّقًا : « اعتراني الصمتُ للحظات قليلة وكان المصحف يهتزُّ بين يديَّ المرتعشتين ، فسلَّمتُه إلى زوجتي وقلتُ لها : « اقرئي هذه السورة .. أليس فيها إجابة على ما رأيناه في القطار اليوم ؟ ! » نعم ، لقد كانت هي الإجابة القاطعة التي جعلت كلَّ شكٍّ في عقلي يتهاوَى ويأتي إلى نهايته ، الآن قد أيقنتُ بلا أدنى شكٍّ أنَّ هذا الكتاب مُوحَى من اللَّه الخالق ، وأنَّه رسالته الخالدة إلى سائر البشر في جميع العصور ، فبرغم أنه موجود أمام الإنسان أكثر من ثلاثة عشر قرنًا ، إلا أنَّه (في ذلك الزمن السحيق) قد استشرف شيئًا أصبح الآن فقط حقيقة ماثلة مروِّعة ، في هذا العصر الآلي المعقَّد الذي يَكْتنفهُ السراب ! لقد كان الطمعُ في المزيد من المال والثراء قائمًا على مرِّ العصور ، ولكن لا يمكن مقارنته بهذا الطمع الذي دَمَّرَ اليوم كلَّ شيءٍ خيِّرٍ في حياة الإنسان وأخلاقه ، وسَخَّره عبدًا مسلوب الإرادة لشهوة المال ، وأصبح الإنسان عاجزًا مشلولاً أمام دوافع هذه الشهوة المتنامية أبدًا ، حيث تتجدَّد كلَّ يوم الحاجة إلى اقتناء شيء جديد .. إنَّه الجوع الذي لا يشبع

أبدًا ، بل يُسَلِّمُ الإنسان من رغبة إلى رغبة ومن شهوةٍ إلى شهوةٍ أكبر منها دونما شَبَع أو ريّ ، وهكذا تتقلّصُ روح الإنسان وتتلاشى تحت وطأة الرغبات الشيطانية التي تهوي به أسفل سافلين .. ﴿ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴾ » .

يعتقد « محمَّد أَسَد » أنَّ رؤية الجحيم في الشقِّ الأول من الآية مُنْصَبَّة على الجحيم الدنيوي ، وأما رؤية الجحيم عين اليقين فتتعلق بجحيم الآخرة .

ثم يُعَقِّبُ على ذلك قائلاً : « **لقد انكشف لي الآن أنها ليست حكمة إنسانية تَوَصَّلَ إليها إنسانٌ في الماضي السحيق بالجزيرة العربية ، فمهما كانت حكمةُ هذا الإنسان بالغةً ورائعةً ، فإنه وحده لم يكن ليستطيع أن يُدْرِكَ أبعادَ هذا العذاب الأليم الواقع على إنسان هذا القرن العشرين ، وأن يصوغَه في هذه الصورة المذهلة المروِّعة ، إنني في هذه الآية أسمع صوتًا من القرآن أعظم من صوت محمد ﷺ** » .

« محمَّد أَسَد » لا يقصد هنا التقليل من شأن الحديث النبوي الشريف بأي حال ، وهو الداعي إلى الأخذ بسُنَّة النبي ﷺ بحذافيرها وبكلِّ تفصيلة فيها بلا تراخٍ .. وإنما هو في موقف ترتيب لأولويات وتمييز لدرجات ، وشتان بين مقام الألوهية ومقام النبوَّة .

بهذه العبارات الخاتمة شعر « محمَّد أَسَد » أنه قد جاء إلى نهاية قصته .. وهو جالس في مسجد النبي ﷺ بالمدينة المنورة يحكي

ويتأمّل ، وقد شَمَلَ المكان سكونٌ عميق تحت أضواء خافتة تنبعث من المشاعل الزيتية المتدلية من سقف المسجد في سلاسل طويلة بين الأعمدة ، وكان صديقهُ الشيخ قد أَحْنَى رأسَه على صدره وأغلقَ عينيه ، يظنُّ مَنْ لا يعرفه أنَّه مستغرق في النعاس ، ولكن « محمَّد أَسَد » يعرف الشيخ ويعلم أنه كان يستمع بإنصات عميق لما يقول ، محاولاً أن يضعَ هذا الكلام في إطار خبراته الواسعة بالناس والقلوب ، وبعد هنيهة رَفَعَ رأسه وفَتَحَ عينيه وهو يقول : « ثم ماذا بعد ذلك ماذا فعلت يا محمد ؟ » .

فرد « محمَّد أَسَد » قائلاً : **« كان الشيء الواضح أمامي يا شيخ أن أتوجَّه باحثًا عن صديق لي مسلم من أصل هندي ، كان قائدًا لمجموعة من المسلمين في برلين ، أخبرته أنني أريد أن أعتنقَ الإسلام ، فمد يديه إليّ فوضعت يدي اليمني بينهما ، وفي حضور شاهدين نطقت بالشهادة : [أشهدُ ألاَّ إلهَ إلا اللهُ وأنَّ محمدًا رسولُ اللّه] »** .

العبور .. وخاتمة المطاف

مرَّ عام على إعلان « محمَّد أَسَد » إسلامه ، وفي سنة ١٩٢٧م توجَّه مع زوجته « إلْسا » إلى مكة في أول حجة لهما معًا ، لقد ذَهَبَ « محمَّد أَسَد » بعد ذلك إلى الحج أربع مرات أخرى بدونها فقد وافتها المنيّة في أول مرة وتَمَّ دَفْنُها في صعيد مكة المكرمة .

ركب « محمَّد أسَد » وزوجته السفينة من مصر إلى جزيرة العرب عَبْرَ البحر الأحمر ، فياله من حظّ عاثر أن تركب سفينة مصرية تحمل حُجاجًا مصريين في أي عصر من العصور ! فأنت بذلك إنما تركب مأساة إنسانية أو تركَبُكَ ، وقد تتحوَّل المأساة إلى كارثة مثل كارثة العبّارة التي غرقت وأخذَتْ معها أكثر من أَلْفِ نفسٍ إلى قاع البحر ، وخلَّفَتْ بعدها آلاف المآسي والعاهات النفسية والعقلية المستديمة لضياع العدالة وإفلات المجرمين من قبضة القضاء العادل حتى هذه اللحظة ، فمن الذي يحمي الفقراء المظلومين من قُطّاع الطرق المترفين والمفسدين والمستغلّين ! .

إنها قصة تتكرر في كل عام إلى اليوم ، وها هو شاهد عيان من ثمانين سنة يقصُّ علينا ما رآه من معاناة الحُجّاج المصريين .. قصة أزلية متكررة ، ومعضلة لا تجد حلاً لأنها قصة الفقراء المستضعفين .. السواد الأعظم من المصريين .

يقول « محمَّد أسَد » : **« لم يكن في السفينة مسافرون غير الحجاج .. كان عددهم كبيرًا جدًا ضاقت بهم السفينة ، فشركة البواخر (مدفوعة بجَشَعِها ونَهَمِها إلى استغلال موسم الحج القصير) حشرت المسافرين حشرًا ضاربة براحتهم وإنسانيتهم عرضَ الحائط ، حشرتهم على سطح السفينة وفي الغُرَف والممرات ، وعلى السلالم وغرف الطعام بل في العنابر المخصّصة لنقل البضائع ، وفي كل رُكْنٍ ممكن في السفينة .**

احتملَ المسافرون (بأتضاع عظيم) كلَّ هذا البلاء واضعين نُصْبَ أعينهم الهدف الأسمى لرحلة الحج المقدسة ، ولذلك كان عليهم أن يتحمَّلُوا الضيقَ والمهانة بلا شكوى أو تَذَمُّر . كنا نراهم جالسين القرفصاء على ظَهْرِ السفينة رجالاً ونساءً وأطفالاً ، رأينا كيف كانوا يُعِدُّون طعامَهم بمشقَّة بالغة (فالشركة لم تكن تقدِّم لهم أي طعام) ، رأيناهم كيف كانوا يسعون جيئة وذهابًا يلتمسون الماء وقد أعدُّوا لذلك أواني وأوعية من الصفيح ، كانت كل حركاتهم في هذا الخضمّ البشري عذابًا متواصلاً ، رأيناهم كيف كانوا يتزاحمون خمس مرات كل يوم حول صنابير المياه ذات العدد القليل جدًّا الذي لا يمكن أن يفي بحاجة هذه الجحافل لتأدية فريضة الوضوء ، وكيف كانت أنفاسهم تضيقُ من فساد الهواء في العنابر الغاطسة تحت الماء ، فهذه جحور لا تصلح لإقامة البشر . شيء واحد كان يلفت نظرنا بشدة ذلك هو قوَّةُ الإيمان الذي يعمرُ صدورَ أولئك الحجاج ، فلم يكن يبدو عليهم أنهم كانوا يَغْبَنُون بما يقاسونه من آلام ومتاعب ، لا بدَّ أنهم كانوا مستغرقين في التفكير في مكة ولم يكن لهم من حديث إلا عن مكة وحجِّهم إليها . وزيارتهم لقبر الرسول ﷺ في المدينة المنورة .. والحقُّ أنَّ الانفعال الذي بدا عليهم وهم يتطلعون إلى القادم من الأيام قد أضاء منهم الوجوه ، وكانت النسوة ينشدن أناشيد المدينة المنوّرة ، وينطلق دعاء الجميع بين حين وآخر :« لبيك اللهم لبيك » . وقفَ معظم الحجّاج عند حاجز السفينة يحدقون بأبصارهم إلى الأرض التي كانت ترتفع في الأفق ببطء من بين ضباب الصباح الباكر ومرة أخرى ينطلق ذلك الدعاء الحبيب « لبيك اللهم لبيك » .

نداء مكة

يقول « محمَّد أَسَد » : « رغم أنني كنت أجهل كلَّ شيء عن مكة لسنوات عديدة من عمري ، إلا أنني اكتشفت (فيما بعد) أنها كانت غايتي ، وقَدَري الذي يدعوني إليه بقوة ويجذبني بخيوط خفية دون وَعْي منّي بذلك ، كانت مكة تناديني بصوت قوي : « ها هنا قَدَرُك ومصيرك ومستقرُّ عَقْلِك وروحِك ومكنونات قلبك » ، وعرفت أن نهاية طريقي هي الإسلام ، وأن هذا ما كنت أرنو إليه وأسعى نحوه منذ ولدت وإن لم أَعِ ذلك . الآن تحقَّقت أشواقي كلها : أن أنتمي إلى فَلَكِ معين من الأفكار والمشاعر ، أن أكونَ جزءًا من كيان أمة قوامُها الأخوّة . عندما لاح شاطئ الجزيرة العربية انفجرت صيحات الحجاج بالتلبية : « لبيك اللهم لبيك » . انطلقَتْ من قلوب وحناجر آلاف الحجاج من فوق ظَهْر السفينة وهم يلبسون أثوابهم البيضاء ويَشْرَئِبُّون بعيون مشوقة نحو الشاطئ ، وكلما اقتربت السفينة من الشاطئ ، شعر الحجاج بمزيد من الاقتراب نحو تحقيق أمنيتهم الكبرى بمشاهدة الكعبة المشرفة وممارسة شعائر الحج ، فيهتفون « لبيك اللهم لبيك » . أما بالنسبة لي فقد كانت مشاهدة شاطئ الجزيرة العربية ذروة سنوات من البحث عن الحقيقة ، ومن ثَمَّ كان حماسي للاقتراب من غايتي أعظم ، نظرتُ إلى زوجتي « إلْسا » التي كانت ترافقني في رحلة الحج فقرأتُ في عينيها نفس الشعور ، التفتنا حولنا لنرى مشهدًا رائعًا : عشرات من الزوارق العربية الصغيرة تتقدَّم بأشرعتها البيضاء المحلّقة ، تلك إذن بشائر الاستقبال الحميم لضيوف الرحمن ، اقتربت

الزوارق رويدًا رويدًا لتحيط بالسفينة ، بينما أشرعتها تتمايل ثم تنطوي واحدًا بعد الآخر كأنها أجنحة طيور تصفق فرحًا بعثورها على الطعام » .

نزل « محمَّد أَسَد » مع زوجته مصحوبين بأمتعتهما ليستقلاَّ أحد الزوارق العائدة إلى الشاطئ ، وبينما هما جالسان وقد أمسكَ كلٌّ منهما بيد الآخر يسرح « محمَّد أَسَد » مع خواطره فيتساءل :

« **هل كان من الممكن أن أتنبأ بأن عملية بسيطة مثل الحج يمكن أن تقلبَ حياتنا رأسًا على عقب ؟ ! لقد كنت كالسندباد عندما كان يغادر شواطئ بلاده في رحلاته نحو المجهول ، خالي الذهن تمامًا مما تخبّئ له الأقدار ، لم يكن ليستطيع أن يتنبأ ولا أن يتطلّع إلى شيء بعينه في كل مغامراته العجيبة التي قُدِّر له أن يصادفَها سوى التجارة وكَسْب العيش ، أما أنا فلم تكن لي رغبة أخرى سوى أداء فريضة الحج ، ولكن بعدما حَدَثَ لي وللسندباد من أحداث لم يكن ممكنًا لأي منا أن يرى العالم بعينيه السابقتين . حقًّا أنا لم أصادف ما صادف السندباد من غرائب الأشياء وعجائب المخلوقات : كالجن والنساء المسحورات وطائر الرُّخ العملاق ، ولكن كان مُقَدَّرًا لهذه الحجّة الأولى أن تُحدِثَ في نفسي أعمقَ الآثار وأبقاها على مرِّ الزمن ، أما زوجتي « إلْسا » فقد كان الموت ينتظرها في البيت الحرام وما كنا لنعلم أو يخطر لنا على بال أن تنتهي حياتها إلى هذا المصير ، في هذا المكان وفي ذلك الوقت ، ولكني جَرَّبْت نوعًا آخر من الموت ، فقد شعرت أنني أنسلخ من كلِّ حياتي الماضية .. لقد خَلَّفْتُ عالم الغرب وراء ظهري لأحيا حياة جديدة مع**

المسلمين وبينهم ، ولم أكن أُدرِكُ بوضوح أنني خَلَّفْتُ مع الغرب ماضيّ كلَّه ، خَلَّفْتُ عالم الغرب بكل فِكْرِه ومشاعره وتخيلاته وأوهامه ، وشعرت بأن ورائي بابًا يُغلق بهدوء بالغ ، وإلى الأبد . كنت أظنُّ أن رحلة الحج هذه ستكون رحلة كسائر الرحلات السابقة التي جُبتُ فيها بلادًا وأراضي غريبة لأعود بعدها إلى حياتي السابقة ، ولكن في هذه المرة كانت الأيام قد تَغَيَّرَتْ وتَغَيَّرْتُ أنا نفسي مع الأيام ، واختلفت وجهة حياتي ورغباتي جميعًا فلم يعد لها صلة بالماضي كلّه » .

فوق الجسر حلم مؤرّق

يصف « محمَّد أَسَد » « جِدَّة » في ذلك الزمن كبلدة صغيرة بسيطة ليس فيها ما يُلْفِتُ النظر ، ثم ينتقل مع قوافل الحجيج متجهين صوب مكة فيصف الطريق بينهما « **طريق صحراوي تحفُّ به أرض جرداء لا أثر فيها لحياة من أي نوع .. وفوق هذا السهل المهيب كانت قوافل الحجاج تشقُّ طريقها بعناء شديد في موكب طويل به آلاف الجمال تسير خلف بعضها في طابور واحد لا يُعرف أوَّلُه من آخره ، وهي محمَّلة بالحجاج والهوادج والأمتعة ، تختفي أحيانًا وراء التلال العالية لتظهر مرة أخرى وبصورة تدريجية ، ملتزمةً مسالكها في طريق رملي واحد ، درسته قوافل مماثلة عَبْرَ قرون طويلة من الزمان ، كان المشهد بأسرِه يتحرك ببطء في صَمْتٍ صحراوي مهيب يَتَخَلَّلُه وقْعُ أقدام الجمال وحُداء سائقيها من أبناء البدو ، وبين حين وآخر تتناهى إلى مسامعي أصداء أغنيات خافتة لبعض الحجاج ، ويتسلَّلُ إلى رأسي نوع من الخدر**

المُحبَّب ، ويستحوذ عليّ شعور غريب جدًا يمكن أن أُسَمِّيه رؤيا ، حيث رأيت نفسي أعبر جسرًا طويلاً جدًا فوق لُجَّة من الماء غير منظورة بوضوح ، أنظر ورائي فلا أكاد أرى طرفه الآخر الذي انطلقت منه ، فقد غاص في الضباب البعيد ، بينما طرفه الآخر آخذ في الظهور أمامي . وقفْتُ في منتصف الجسر وقد ارتاع فؤادي من الخوف ، فقد أدركت أنني ابتعدت كثيرًا عن أول الجسر بحيث يستحيل عليّ العودة إليه ، ولكني غير قريب من نهايته بدرجة كافية أطمئن إليها ، وخُيِّل إليّ حينذاك أنه قد فُرِضَ عليّ أن أبقى هكذا مُعَلَّقًا إلى الأبد ، لا أستطيع مُضِيًّا ولا أستطيع الرجوع حيث بدأت ، كأنما قد تَسَمَّرَتْ أقدامي فوق لُجّةٍ تمور ، كابوس مزعج أنقذني منه صيحة تلبية أطلقتها امرأة مصرية كانت في هودج على الجمل الذي أمامي ، فَأَفَقْتُ من غفوتي على نداء « لبيك اللهم لبيك » ، وهنا انقطعت الرؤيا الغريبة ، تناهت إلى مسامعي الآن من جميع الجهات أصوات أناس يتكلمون بلغات لا حصر لها ، ويطفو على سطح هذا الطنين الهائل كلّه من وقت لآخر نداء الحجيج « لبيك اللهم لبيك » ، ثم تعلو أغنية لفلاحة مصرية تمدح الرسول ﷺ وتجاوبها فلاحة مصرية أخرى « بزغرودة » تلك الصيحة المحببة التي تُطلق عادة في المناسبات المفرحة كالزفاف والولادة والطهور والحفلات الدينية الشعبية ، قَطَعَ الحجيج المسافة بين جدة ومكة بقوافل الجمال في يومين واقتربوا رويدًا من الكعبة المشرَّفة » .

ويصف « محمّد أَسَد » مبهورًا : « حُشودٌ من خَلقِ اللّه جاءوا من كلِّ فجٍّ عميق على سطح الكرة الأرضية ، يتكلمون لغات شتَّى في هزج

ومزيج ينبعث من كلِّ جانب ، كان كل شيء يتحرك كأنه كتلة واحد في تدافع وتسارع ، إلى أن وجدنا أنفسنا فجأة أمام أحد أبواب الحرم ، فلما دخلْنَا بَرَزَ أمام أعيننا مكعب من المباني يقترب ارتفاعه من أربعين قدمًا وقد كُسِي بقماش أسود له حاشية عريضة مُطَرَّزة بخيوط ذهبية .. به آيات قرآنية تحفُّ بالجزء العلوي من كسوة الكعبة » .

أمام الكعبة

« هذه إذن الكعبة المكرمة التي كانت ولا تزال محطّ أشواق ملايين المسلمين لقرون عديدة ، جاءها حجاج لا يُحْصَى عددهم من مشارق الأرض ومغاربها ، بذلوا عَبْرَ العصور تضحيات عظيمة في سبيل الوصول إلى هذه البقعة بعدَ عناءٍ ومَشَقَّة ، وفي أعينهم جميعًا ، بل في قلوبهم كان هذا المبنى المكعب الصغير هو ذروة آمالهم جميعًا وغاية أحلامهم هنا إذن تنتصبُ الكعبة قائمةً وقد غُطِّيَت كلّها بنسيج من حرير أسود اللون . كأنها جزيرة هادئة وسط ساحة المسجد ، أبسط بكثير من أيِّ أثر معماري آخر في العالم ، كأنَّ مَن بَنَى الكعبة يقصد أن يجعلها رمزًا لضعة الإنسان المخلوق أمام عظمة اللّه الخالق ، لقد عرف مَنْ بَنَى الكعبة أو أعاد بناءَها أنه ما من جمال في تناسق البناء ، وما مِن كمال في خطوطه المعمارية مهما سما شأنه يمكن أن يُوَفِّي فكرة الألوهية حقَّها ، وهكذا اقتصر جهده على أبسط شكل يمكن أن يتصوره عَقْلُ إنسان : مكعب من الحجر ! » .

يقول « محمَّد أَسَد » : « لقد سَبَقَ لي أن شاهدت في شتى البلاد

المسلمة مساجد أَبْدَعَ في تصميمها كبارُ الفنانين وعظماء المهندسين المعماريين ، ولكن لم يكن شعوري بهذه القوة التي تأخذ بمجامع قلبي الآن أمام الكعبة ، ففي بساطتها المطلقة وتجردها التام من كلِّ أثر لجمال الخطوط والأشكال فكرة تنطق بالاستسلام الإنساني المطلق لله ، هذا التواضعُ الفخور في هذا البناء الصغير ليس له مثيل على الكرة الأرضية ! وقفت أتأمل مشاعر العظمة الروحية التي تملؤني وأنا واقف أمام الكعبة ، وإذا بسعادة غامرة تتدفَّق من أعماق قلبي كأنها أغنية صامتة ، الكعبة إذن رمزٌ للنشاط الإنساني مضمونه : « أن أفكارنا ومشاعرنا وكلَّ ما يشتمل عليه تعبير « الحياة الجَوَّانيّة » ليس وحده ما يجب أن يكون وجهته ومحروه « اللّه » سبحانه وتعالى ، بل كذلك حياتنا البرَّانية الناشطة وسلوكنا العملي كلّه . تقدمتُ خطوات قليلة لأندمج في هذا السيل الإنساني المتدفّق الدائر حول الكعبة وتابعت الطواف ، وسرعان ما زايل قلبي كلّ ما كان تافهًا مريرًا ، وأصبحت جزءًا من سيال دائر ؟ آه ، هل هذا الذي أشعر به الآن هو وَعْي المرء بأنه ذرة في حركة فلك دوّار ؟ هل هذا هو نهاية حيرة كل حيران ؟ تلاشت الدقائق وهَدَأَ الزمن ، وأصبح هذا المكان هو محور الكون » .

بعد تسعة أيام فقط تُوفِّيَتْ « إلْسا » زوجة « محمَّد أَسَد » ، ماتت فجأة بعد وَعْكة دامت بضعة أيام ، ربما من القيظ الشديد والأطعمة التي لم تعتد عليها من قَبْل ، ثم انقلبت الوعكة إلى مرض غامض احتار الأطباء السوريون بمستشفى مكة في تشخيصه أو علاجه حتى فاضت روحها إلى بارئها .

* يقول « محمَّد أَسَد » : « **أُطْبِقَ عليّ بيأس وظلمة عظيمان ، فقد ماتت زوجتي الحبيبة ، ودفنت في مقبرة رملية بمكة ، ووُضِعَ على قبرها حجرٌ ، لم يبقَ من « إلسا » سوى ذِكْرَاها الحبيبة ، وشاهد حجري على قبرها ، وظلمة اكتنفتني فلم تنقشع إلا بعد ذلك بزمن طويل** » .

في عرفات

انطلق الحجيج إلى عرفات فوقفوا أمام جبل الرحمة حيث يصف « محمَّد أَسَد » هذا المشهد الرّائع فيقول : « **وقفت عاري الرأس في ثوب الإحرام الأبيض في قلب حشد من الحجاج مرتدين نفس الثياب البيضاء ، أناس جاءوا من قارات ثلاث مُوَلِّين وجوههم جميعًا نحو جبل الرحمة المنتصب شامخًا في سَهْل فسيح ، واقفين جميعًا مُشْرَئِبَّة أعناقُهم لاهجة ألسنتهم بالدعاء حتى وقت الظهيرة ، متابعين حتى وقت غروب الشمس ، ندعو ونذكر اللَّه ، ونتفكر في ذلك اليوم الذي لا مفرّ منه ، يوم يجمع اللَّه الناس للحساب في حشد هائل رعيب .** » .

ينتقل « محمَّد أَسَد » إلى موقع آخر ليرى المشهد من رأس تلّة عالية ناظرًا إلى أسفل نحو سَهْل عرفات ، وتتوالى على خواطره ذكريات قرون ماضية فيقول : « **كأني أرى هذه الأرض التي كانت جرداء ميتة تدبُّ فيها الحياة من جديد بأمواج من البشر التي مرَّت عَبْرَها وامتلأت بأصواتهم الصادرة من ملايين الرجال والنساء جاءوا راكبين أو راجلين بين مكة وعرفات في أكثر من ألف وثلاثمائة حجة ، خلال أكثر من**

أَلْف وثلاثمائة عام ، ها هي أصواتهم وخطوات أقدامهم وأصوات حيواناتهم ووقع خطوها يستيقظ الآن ويُسْمعُ من جديد ، إني أراهم الآن يمشون ويركبون ويتجمعون ، وأرى أجنحة الإيمان التي تحملهم إلى هذه البقعة المباركة من الأرض فوق قوس القرون ، دفقًا يوقظها من رقود طويل بينما يجذبني صفْقُ جناح قوي إلى مداره ، ويجذب ما انقضى من أيام عمري إلى حاضر يَمْثُلُ أمام خاطري ، ومرة أخرى أراني أتحرك في سَهْل عرفات ، بل أنطلقُ في عَدْوٍ راعد في قَلْبِ كتلة هائلة من البشر ، في ثياب الإحرام عائدين من عرفات إلى مكة ، نتحرك في كتلة واحدة كأننا طائرين لا تكاد أرجلنا تلمس الأرض . خُيِّلَ إليّ أننا طائرون بالفعل مع الريح ، منجرفون في لُجَّة من السعادة غامرة لا نهاية لها ولا حدود ، وأسمع زمجرة الرياح تدوي في أذني بنشيد النصر : « إنك يا محمد لن تكون غريبًا وحيدًا بعد اليوم ، أبدًا .. أبدًا ! » لقد سما هؤلاء الرجال جميعًا فوق حيواتهم الصغيرة ، وها هو ذا إيمانهم يدفعهم إلى الأمام دَفْعًا كأنهم بنيان واحد ، نحو آفاق لا حدود لها ، لم يعد الحنين إلى نعمة اللّه بحاجة إلى أن يبقى مُهَمَّشًا أو مكتومًا فلقد تحققت يقظته ووجد وعدَ اللّه تامًّا مكتملاً ، وعندما يشعر الإنسان بحقيقة هذا الاكتمال في قرارة نفسه تتسارع خطواته وتتسع وتتألق روحه بما وَهَبها اللّه من بهاء وسناء فَخَطْوه بَهْجةٌ ومَعرِفَتُه حُرِّيَّةٌ ، وعالمه فَلَكٌ دَوَّار بلا نهاية ، أستدير خلفي فأرى ألوفًا من الفرسان في أثوابهم البيضاء ، ويظهر وراءهم ذلك الجسر الذي انطلقت منه في أول الطريق ، لقد تجاوزته الآن كلّه وخَلَّفْتُ آخره وراء ظهري بينما تلاشى أوله في ضباب المسافات والأبعاد ! » .

◙ ◙ ◙ ◙

الخاتمة

عندما أشرفت على ختام هذه الرحلة الطويلة لنفس أضناها قَلَقُ المعرفة، وحَفَزَها باعث الفطرة للبحث عن الإيمان الحقّ حتى اهتدت إليه واستقرّت عنده تروي منه الظمأ وتشبعُ التّوقَ إلى التزكية، وتُوَثِّقُ صلتها بالخالق والمعبود الحقّ والرسالة الخالدة، وتحيا في خدمة الدين الحقّ دين الإسلام، عندما أشرفت على إنهاءِ هذه الرحلة وأردت أن أتوقف عندها شعرت بأنه ربما كان من المناسب أن أختمَ هذه السيرة العطرة لـ « محمّد أَسَد » بكلمة منه (كأنه يردّ بها على الحملة الغربية المسعورة ضد الإسلام ونبيه العظيم محمد ﷺ) :

يقول : « إن ما نشهده من ضَعْفٍ بين المسلمين ليس سببه الإسلام ، بل سَبَبُه المسلمون أنفسهم ، لموات قلوبهم وكَسَلِهم وحبّهم للدنيا وانهزامهم الروحي والثقافي ، أما الإسلام فهو أعظم منهج يمكن أن يتبعه البشر في كل مجالات الحياة ، وقد ثبت هذا ثبوتًا قاطعًا ، فما من شيء حَذَّرَ الإسلام منه ومن شروره إلا تَبَيَّنَ أنه شَرٌّ فِعْلاً ، وما من شيء دعا إليه الإسلام وإلى اجتناء ما فيه من خير إلا اتّضح أنه خير حقًّا ، ولا بدَّ للمسلمين أن ينفضُوا عن أنفسهم روح الهزيمة والاستسلام والتشاؤم أمام المدنية الغربية ، والتي لا تُسامي ولا تُساوي الإسلام ، والتي ينبغي أن نجعلَ معيار القَبُول لأي شيء منها أو رَفْضِه هو الإسلام نفسه » .

الفهارس العامة



١ـ الآيات القرآنية

٢ـ الأحاديث النبوية

* * *

٣- الأعلام

تم بحمد الله

MOHAMMAD ASAD

AUTOBIOGRAPHY OF A MIND SEARCHING FOR BELIEF

By

Mohammad Yusuf Ades

Maktabat

Al-Imam Al-Bokhary